روائع
المسرحيات
العالمية

تاسو

تأليف : يوهان ڤولفجانج جوته

ترجمة وتقديم : د. عبد الغفار مكاوى

(عدد ممتاز)

المسرح العالمى

سلسلة مسرحيات عالمية

تصدر بإشراف لجنة المسرح العالمى

الإدارة : ١٨ شارع حسين حجازى . ت : ٢٤٢٩٨٠ - القاهرة

المراسلات : باسم المشرف المسئول - بريد مجلس الأمة

روائع
المسرحيات
العالمية

نصف
شهرية

أول فبراير
١٩٦٧

٤٠

تاسو

تأليف : يوهان ڤولفجانج جوته

ترجمة وتقديم : د. عبد الغفار مكاوى

أقرتها
لجنة
روائع
المسرحية
العالمية

مشروع المكتبة العربية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، وزارة الثقافة



تأليف : يوهان ڤولفجانج جوته

ترجمة وتقديم : د. عبدالغفار مكاوى

Torquato Tasso

von

JOHANN WOLFGANG GŒTHE

übersetzt und eingeleitet

von

A. MIKKAWY

لوحة بحياة جوته وعصره

١٧٤٨ (٢٠-٨) — المستشار القيصرى يوهان كاسبار جوته يتزوج فى سن الثامنة والثلاثين فى مدينة فرانكفورت على نهر المايز من كاتارينا اليزابيث تكستور .

١٧٤٩ (٢٨-٨) — يوهان فولفجانج جوته يولد فى فرانكفورت، أكبر المدن الألمانية بعد برلين وهامبورج ومن أهم مراكز التجارة فيها .

١٧٥٠ — ولادة شقيقته كورنيليا (ماتت فى سنة ١٧٧٠) . وفاة الموسيقى العظيم «يوهان سباستيان باخ» (ولد فى سنة ١٦٨٥). الكاتب والفيلسوف الفرنسى الكبير «فولتير» (١٦٩٤ — ١٧٧٨) يزور برلين .

١٧٥١ — بدء ظهور الانسيكلوبيديا الفرنسية باشراف «ديدرو» (١٧١٣ — ١٧٨٤) و«دلامبير» (١٧١٧ — ١٧٨٣) .

١٧٥٥ — ميلاد «فيليب زايدل»، سكرتير جوته وصديقه الوفى

(١) سبق لهذه السلسلة أن قدمت فى عددها الخامس والعشرين مسرحيتين قصيرتين من أعمال جوته فى شبابه المبكر، مع مقدمة قيمة عن حياته ومؤلفاته بقلم الدكتور مصطفى ماهر، ولذلك فقد رأيت منعا للتكرار أن أكتفى بهذه اللوحة الموجزة .

(مات سنة ١٨٢٠) . وفاة الكاتب والفيلسوف الفرنسى «مونتسكيو» (ولد ١٦٨٩) .
« مس سارا سامبسون » أول تراجيديا برجوازية ألمانية «لليسنج» تمثل على المسرح لأول مرة .

١٧٥٦ — جوته يكتب أولى قصائد شبابه .
نشوب حرب السنوات السبع (التى استمرت حتى سنة ١٧٦٣) بين «فريدريش الثانى» ملك بروسيا وبين النمسا وفرنسا وروسيا والسويد والدولة الألمانية .
المعرض الصناعى الأول يقام فى لندن . إعدام فتاة صغيرة فى لاندزهوت (بافاريا) لاتهامها بمراهنة الشيطان ، وهى آخر ضحايا إحراق السحرة على يد المسيحيين المتعصبين .

١٧٥٧ — ميلاد «كارل أوجست» أمير فيمار وصديق جوته وراعيه (مات فى سنة ١٨٢٨) . بداية الاستعمار الإنجليزى للهند .

١٧٥٩ (١٠-١١) — ميلاد الشاعر الكبير «فريدريش شيلر» (فى مدينة مارباخ بمقاطعة فيرتمبورج) صديق جوته الحميم وزميله فى الكفاح لتأسيس الأدب الألمانى الجديد (مات سنة ١٨٠٥) .
وفاة الموسيقار الكبير «هاندل» . ظهور الرسائل الأدبية «للسنج» ، وكانديد أو التفاؤل لفولتير .

١٧٦١ — ظهور رواية (هيلوييز الجديدة) «لجان جاك روسو» .

١٧٦٢	: ظهور ترجمة «فيلاند» (١٧٣٣ – ١٨١٣) النثرية لمسرحيات شيكسبير ، التي تتم في سنة ١٧٦٦ .
	ظهور « إميل » و « العقد الاجتماعي » لروسو .
	تمثيل أوبرا « أورفيوس وأويريديكه » لجلوك (١٧١٤ – ١٧٨٧) لأول مرة .
١٧٦٣	– السيادة البريطانية على أمريكا الشمالية .
	« جيمز وات » الإنجليزي يخترع الآلة البخارية ، كما يخترع النساج الإنجليزي « جيمز هارجريفز » آلة الغزل اليدوية .
	معرض الكتب الأول في « ليبزج » .
١٧٦٥ – ١٧٦٨	– جوته يدرس في جامعة « ليبزج » . صداقته « لبريش » وحبه « لكاتشن شون كويف » ، ومشاهدته للعرض الأول لمسرحية ليسنج « مينافون بارنهيلم » . يكتب مسرحيته الرعوية الصغيرة نزوة العاشق .
١٧٦٥	– ظهور كتاب « ليسنج » الهام في تاريخ النقد الأدبي « لاثوكون أو الحدود بين الرسم والشعر » .
	وفاة « جوتشيد » ، وهو من أهم كتّاب عصر التنوير في ألمانيا وأكبر النقاد الداعين إلى ربط الأدب الألماني بالأدب الفرنسي والاقتداء به .
١٧٦٨	– مرض « جوته » وعودته إلى « فرانكفورت » .
	قراءة مستفيضة للأديبين الألمانيين المعاصرين له « فيلاند » « وكلوبشتوك » و « لشكسبير » وفليسوف عصر النهضة وطبيبها وعالمها المشهور « باراسيلزوس » . عالم الآثار ومؤرخ

الفن «فنكلمان»، أحد رواد الحركة الأدبية الكلاسيكية. يموت مقتولا فى تريستا . حزن جوته عليه .

ظهور كتاب الفيلسوف العالم المؤرخ «هيردر» – صديق جوته وصاحب الأفضال عليه فى شبابه – مذكرات رحلتى فى سنة ١٧٦٩ من ريجا إلى نانتس الذى يعلن قيام الحركة الأدبية المعروفة بحركة العاصفة والاندفاع .

١٧٧٠ – ١٧٧١ – جوته يوا صل دراسة القانون فى «شتراسبورج» ويحصل على «الليسانس». يتعرف على «هيردر» «ولنس» (من أهم أدباء حركة العاصفة والاندفاع) . يتأثر بمشاهدته لكاتدرائية المدينة (المونستر). حبه «لفردريكه بريون» ابنة قسيس «زيزنهيم» .

١٧٧٠ – «ليسنج» يذهب إلى مدينة «فولفنبوتل» حيث يعمل أمينا لمكتبتها .

١٧٧١ – «جوته» يعود إلى «فرانكفورت» ويلقى خطبته المشهورة فى الاحتفال بذكرى «شيكسبير» التى يقول فيها إن الشاعر الإنجليزى الأكبر هو الذى أيقظه من سباته وأنه بدأ حياته الأدبية بعد قراءته له – يكتب مسرحيته جوتزفون برلشنجن فى صورتها الأولى .

ظهور مسرحية إميليا جالوتى «لليسنج» .

١٧٧٢ – يذهب فى شهر مايو إلى «فتسلار» ليتدرب على أعمال المحاماة ويقع فى غرام «شارلوته بوف» التى كانت مخطوبة فى ذلك الحين. يعود فى شهر سبتمبر إلى «فرانكفورت» ويسمع بخبر انتحار العاشق اليائس «جيروزاليم» الذى سيدفعه إلى كتابة « فرتر » .

تأليف اتحاد من المعجبين بالشاعر الكبير «كلويشتوك» من طلبة جامعة «جوتنجن» وأدبائها ينادى بمحاربة الذوق الفرنسى وتجديد الأدب الألمانى.

١٧٧٣	— ظهور مسرحية « جوتزفون برلشنجن » التى تلفت إليه الأنظار . ظهور مقاله عن « فن البناء الألمانى » وبداية العمل فى الكتابة الأولى من فاوست وهى المعروفة « بفاوست الأولى » أو « أصل فاوست » . « لنس » ينشر مسرحيته المعلم .
١٧٧٤	— يتعرف على فليسوف الأديان « لافاتر » (١٧٤١–١٨٠١) الذى سيصبح من أعز أصدقائه ، وعلى « كارل أوجوست » الذى سيصبح أميراً « لفيمار » وراعيا وصديقاً « لجوته » . ظهور مسرحية « كلافيجو » ورواية « أحزان فرتر » ونجاحهما نجاحا هائلا فى داخل البلاد وخارجها . « كلويشتوك » (١٧٢٤ — ١٨٠٣) يتم ملحمته الشعرية الكبرى المسياس .
١٧٧٥	— حبه « لليلى شونمان » — رحلته الأولى إلى سويسرا . ينتهى من مسرحية « ستلا » ويبدأ فى « إجمونت » . « كارل أوجوست » يتولى إمارة فيمار ؛ بداية حرب الاستقلال الأمريكية التى ستستمر إلى عام ١٧٨٣ — دوق مقاطعة « هسن » فى ألمانيا يبيع للانجليز ١٢٨٠٠ من رعاياه للإشتراك فى الحرب الدائرة فى شمال أمريكا .

١٧٧٥ (١٠ سنة٣) – « جوته » يسافر إلى فيمار. صداقته « لكارل أوجوست ».
توجيه الدعوة إلى « هيردر ».

١٧٧٦ – حبه « لشارلوته فون شتاين ».
كتابة مسرحيته القصيرة « الأخوان » . وصول هيردر.
بداية الصناعة البخارية فى انجلترا .
الولايات الأمريكية الثلاثة عشر تعلن استقلالها عن انجلترا .
« كلينجر » (١٧٥٢ – ١٨٣١) ينشر مسرحيته العاصفة والاندفاع التى سميت الحركة الأدبية المعروفة باسمها .

١٧٧٧ : وفاة شقيقته « كورنيليا ». رحلته إلى منطقة جبال الهارس.
بداية العمل فى روايته الكبرى « فيلهلم ميستر » .

١٧٧٨ – سفره إلى برلين . ظهور أشعار جوتفريد أوجوست بورجر التى تلقى هجوما شديداً من شيلر . ظهور مسرحية « ليسنج » « ناتان الحكيم » .

١٧٧٩ – يعين مستشارا ، يبدأ فى كتابة مسرحيته « إفجينيا » ويقوم برحلته الثانية إلى سويسرا ، كما يبدأ فى كتابة مسرحيته « تاسو » .

١٧٨١ – ينغمس فى دراسة العلوم الطبيعية والتشريح والعظام .
وفاة « ليسنج ». ظهور كتاب « كانت » (١٧٢٤–١٨٠٤) نقد العقل الخالص ، وترجمة « فوس » (١٧٥١ – ١٨٢٦) للأوذيسة .

١٧٨٢ – يرقى إلى طبقة النبلاء. وفاة أبيه. عرض مسرحية « شيلر » الأولى « اللصوص » على مسرح مدينة « مانهايم » وهروبه إليها من « شتوتجارت » .

١٧٨٤	– يكتشف عظمة الفكين فى الإنسان .
١٧٨٥	– تركيب أول آلة بخارية فى ألمانيا . زيارة جوته «لكارلزباد» وتوقيعه عقداً لنشر أعماله الكاملة .
١٧٨٦	– يقوم برحلته المشهورة إلى إيطاليا .
١٧٨٧	– ظهور إفيجينيا .
١٧٨٨	– العودة إلى فيمار . الانتهاء من مسرحية اجمونت . حبه «لكرستينه فولبيوس»، وكانت عاملة بسيطة فى أحد مصانع الزهور ، وحياته معها . آخر حوادث حرق الملحدين فى أسبانيا .
١٧٨٩	– ميلاد ابنه الوحيد «أوجوست» (مات فى سنة ١٨٣٠). كتابة قصائده « مراثى روما » والانتهاء من مسرحية « تاسو » . التعرف على الفيلسوف والعالم اللغوى الإنسانى الكبير «فلهلم فون همبولت» (١٧٦٧ – ١٨٣٥) . اندلاع الثورة الفرنسية (الهجوم على سجن الباستيل فى ١٤من يوليه) وإعلان حقوق الإنسان. إعلان دستور الولايات المتحدة وتعيين «جورج واشنجطون» أول رئيس لها (١٧٣٢ – ١٧٩٩) . اختراع القسيس الإنجليزى «كارتريت» للمغزل الميكانيكى. أزمة الصناعة اليدوية .
١٧٩٠	– رحلة جوته الثانية إلى إيطاليا. دراسات فى البصريات. ظهور الجزء الذى تم من فاوست. وفاة «آدم سميث»، أكبر الاقتصاديين الكلاسيكيين فى انجلترا.

١٧٩١ ــ ١٨١٦ ــ «جوته» يشرف على مسرح بلاط فيمار، ويساهم فى التمثيل وتدريب الممثلين واختيار النصوص . وفاة «كريستيان دانييل فريدريش شوبارت» أحد شعراء حركة العاصفة والاندفاع ومن أهم المكافحين فى سبيل العدالة والديموقراطية. عرض أوبرا «الناى السحرى» لموزارت (١٧٥٦ ــ ١٧٩١) لأول مرة على المسرح ، وقد أحبها جوته وأعجب بها كثيراً .

١٧٩٢ ــ ٩٣ ــ كتابة الملحمة الشعرية « رينيكه فوكس » على لسان الحيوان .

١٧٩٢ ــ إعلان الجمهورية فى فرنسا وتشكيل الجمعية الوطنية . شيلر وكلوبشتوك مواطنا شرف للجمهورية الفرنسية .

١٧٩٣ ــ ميلاد «يوهان بيتر اكرمان» المشهور بأحاديثه الرائعة مع جوته . إعدام «لويس السادس عشر» فى فرنسا، واستيلاء اليعاقبة على السلطة . ثورة عمال الغزل فى انجلترا .

١٧٩٤ ــ الحديث الأول بين جوته وشيلر وبداية الصداقة والمراسلات الهامة بينهما . نهاية دكتاتورية اليعاقبة فى فرنسا وبداية الحركات المضادة للثورة .

١٧٩٥ ــ ١٧٩٧ ــ شيلر يصدر مجلة « الهورن » التى يشارك جوته بالتحرير فيها . ظهور رواية فيلهلم ميستر ــ سنوات التعلم . نشر « الأكزين » وهى مقطوعات شعرية تهكمية على رجال العصر بالاشتراك مع شيلر . ظهور كتاب كانت

عن السلام الدائم ، ورسائل « شيلر » عن التربية الجمالية للإنسان .

١٧٩٧	— يكتب قصائده القصصية البالادز ، ويصدر ملحمته الشعرية هرمان ودوروثيا . ويقوم برحلته الثالثة إلى سويسرا . ظهور رواية « هولدرلين » (١٧٧٠–١٨٤٣) هيبريون أو الناسك فى بلاد الإغريق .
١٧٩٨ — ١٧٩٩	— بداية مراسلاته مع « تبسلتر » . « نابليون » يقوم بانقلاب فى فرنسا .
١٧٩٨ — ١٨٠٠	— انشغال « جوته » ببحوثه فى نظرية الألوان ومشاركته فى تحرير البروبيلان . عرض ثلاثية « شيلر » المسرحية الكبرى فالنشتين . « أوجست فيلهلم شليجل » ، (١٧٦٧–١٨٤٥) وشقيقه « فريدريش شليجل » (١٧٧٣–١٨٢٩) يصدران مجلة أثينايوم التى ستنطق بلسان الحركة الرومانتيكية المبكرة .
١٨٠٠	— « نوفاليس » (١٧٧٢ — ١٨٠١) ينشر فيها أناشيد إلى الليل ، بعد وفاة خطيبته . ظهور رواية جان باول (١٧٦٣ — ١٨٢٥) تيتان .
١٨٠٢	— ظهور مسرحية جوته الابنة الطبيعية .
١٨٠٤	— « نابليون » يتوج نفسه امبراطورا . وفاة « شيلر » فى « فيمار » فى اليوم التاسع من مايو . نابليون يهزم جيوش النمسا وروسيا فى « أوسترلتز » ، و « نيلسون » يهزم الأسطول الفرنسى فى « الطرف الأغر » .

١٨٠٦ — الانتهاء من القسم الأول من فاوست وظهورها فى سنة ١٨٠٨ . القوات الفرنسية تحتل فيمار وتنهبها . جوته يتزوج رسميا من «كريستينه فولبيوس» فى ١٩ من أكتوبر بعد موقفها الشجاع فى الدفاع عنه من اعتداء الفرنسيين . جوته يتابع دراسة نظريته فى الألوان وينصرف إلى أبحاثه فى الجيولوجيا والمورفولوجيا . «لودفيج أرنيم» (١٧٨١–١٨٣١) و«كليمنس برنتانو» (١٧٧٨–١٨٤٢) يصدران مجموعة من الأغانى الشعبية الألمانية بعنوان بوق الصبى المسحور ويهديان الجزء الأول منها إلى جوته . انهيار بروسيا بعد هزيمتها فى معركتى «يينا» و«أورشتيت» . الفرنسيون يحتلون «برلين». نهاية «الدولة الرومانية المقدسة للأمة الألمانية» وخلع «فرانز الثانى» تاج الإمبراطورية . تكوين اتحاد الراين تحت وصاية «نابليون» لفرض حصار أوروبى على البضائع الإنجليزية .

١٨٠٧ – ١٨٠٨ — جوته يحب «ميناهيرسليب». «هيجل» (١٧٥٥–١٨٣١) يصدر كتابه ظاهريات الروح .

١٨٠٨ — وفاة والدة جوته . يقابل نابليون فى الثانى من أكتوبر. ظهور مسرحية باندورا . — مسرحية «كلايست» (١٧٧٧ – ١٨١١) . الجرة المهشمة تعرض على مسرح فيمار تحت إشراف جوته. ثورة الشعب الأسبانى ضد نابليون. ظهور خطابات «فشته» (١٧٦٢–١٨٠٤) إلى الأمة الألمانية .

١٨٠٩ – جوته ينتهى من روايته الأنساب المختارة .

١٨١٠ – صدور نظرية الألوان . تأسيس جامعة برلين .

١٨١١ – ١٨١٢ – ظهور الجزئين الأول والثانى من مذكرات حياة جوته من حياتى ، شعر وحقيقة .

١٨١٢ – فى «كارلزباد» و« تيليتس » . مقابلته « لبيتهوفن » . حملة « نابليون » على روسيا وهزيمته . الأخوان «يعقوب » و «فيلهلم جريم» يصدران مجموعة حكايات الأطفال الشعبية التى قاما بجمعها من مختلف البلاد الألمانية.

١٨١٣ – الثورة الألمانية ضد «نابليون» . هزيمته فى «معركة الشعوب » قريبا من «ليبزج » ، وحل اتحاد الراين .

١٨١٤ – يواصل العمل فى الجزئين الثالث والرابع من ذكريات حياته ويكتب أولى قصائد الديوان الشرقى . بداية مؤتمر «فينا» الذى يحتفل بالانتصار على نابليون ويعده انتصارا على الثورة الفرنسية . عودة أسرة «البوربون» (لويس الثامن عشر) إلى الحكم فى فرنسا ومحاكم التفتيش فى أسبانيا .

١٨١٤ – ١٨١٥ – رحلات على نهرى الراين والماين . حب «ماريانه فيليمر». الديوان الشرقى للمؤلف الغربى :

١٨١٥ – ظهور رواية «أيشندورف» (١٧٨٨ – ١٨٥٧) الإحساس والحاضر . عودة نابليون من منفاه فى جزيرة إلبا وهزيمته ونفيه إلى «سانت هيلينه». تأسيس الاتحاد الألمانى من ٣٤ مملكة مستقلة وأربع مدن حرة

حكام روسيا والنمسا وبروسيا يؤسسون « الحلف المقدس » والهدف منه الضغط على كل الثورات الشعبية .

١٨١٦ — وفاة زوجته « كريستينا » .

١٨١٧ — زواج ابنه «أوجست» . يعتزل الإشراف على المسرح . يترجم بعض أجزاء من مسرحية مانفريد للورد « بيرون » (١٧٨٨ — ١٨٢٤) .

١٨١٨ — منع تمثيل مسرحيته اجمونت فى برلين .

١٨١٩ — ظهور الديوان الشرقى للمؤلف الغربى ، ثمرة عشرة طويلة مع شعر « حافظ الشيرازى » وعالم الشرق والإسلام .

١٨٢٠ — وفاة سكرتيره « فيليب زايدل » .

١٨٢١ — العمل فى الجزئين الأول والثانى من رواية فيلهلم ميستر ، سنوات التجوال .

١٨٢٣ — رحلته إلى مارينباد وحبه « لأواريكه فون ليفيتسوف » .

١٨٢١ — وفاة نابليون فى منفاه فى « سانت هيلانه » .

١٨٢٣ — يكتب مرثاة مارينباد . السيمفونية التاسعة « لبيتهوفن » .

١٨٢٥ — العمل فى القسم الثانى من فاوست . يتلقى من « فرانز شوبرت » (١٧٩٧—١٨٢٨) الألحان التى وضعها لبعض قصائده .

١٨٢٧ — بدء ظهور طبعة أعماله الكاملة فى أربعين جزءاً . وفاة حبيبته القديمة « شارلوته فون شتاين » . ظهور ديوان الشاعر « هينى » كتاب الأغانى .

١٨٢٨ — نشر رسائله مع « شيلر » . وفاة الأمير « كارل أوجست » .

١٨٢٩	: ظهور فيلهلم ميستر ، سنوات التجوال ، والجزء الثالث من رحلته الإيطالية. قراءته لمذكرات «سان سيمون» أحد الاشتراكيين الفرنسيين المثاليين .
١٨٣٠	— وفاة ابنه «أوجست». الشاعر البولندى الكبير «مكيفيتش» (١٧٨٩ — ١٨٥٥) يزوره فى فيمار .
١٨٣١	— يتم القسم الثانى من فاوست والجزء الرابع من شعر وحقيقة . « ستندال » ينشر روايته الأحمر والأسود .
١٨٣٢	— بداية مرضه الأخير ووفاته فى صباح اليوم الثانى والعشرين من شهر مارس .

مقدمة المترجم

لم يكن جوته من الشعراء الذين تخطر لهم الفكرة فيسرعون كالمحمومين بتدوينها على الورق ثم لا يطيقون بعد ذلك أن يلقوا عليها نظرة واحدة ! لقد كانت تأتيه الفكرة فيبدأ فى كتابتها ثم يدركه التعب أو يناله السأم أو تشغله مشاغل الحياة فيتركها ناقصة . وقد يعود إليها فى خلال أيام أو أشهر أو سنين – ربما امتدت نصف قرن كما فعل فى مسرحيته الكبرى فاوست ! – فيضيف إليها أو يعدل فيها أو يعيد صياغتها فى وزن جديد أو يكتبها شعراً بعد أن بدأها نثراً . وقد يحس أن الفكرة لم تنضج النضج الكافى ، فينتقل إلى مشروع آخر كان قد بدأه ولم يتمه فيقطع فيه شوطا ثم يتركه إلى غيره . وتواصل هذه الأفكار حياتها الخاصة فى ضميره ، وكأنها تنتظر حتى تتم خلقها وتأتى اللحظة المناسبة التى تخرج فيها إلى النور . ولكن اللحظة يطول غيابها ، ويلح الأصدقاء والمحبون على الشاعر ليستأنف عمله من جديد . ولكن انشغاله بأعباء العمل أو السياسة ، وإقباله النهم على نعم الحياة الخصبة والحب المتجدد ، وانصرافه إلى مختلف الأبحاث العلمية فى النبات والطب والألوان وطبيعة الأرض والجو والصخور.... الخ يؤخر إنجاز الوعود ، ويزيد من التشتت والتردد . غير أن الإلهام السعيد لا يخيب ظنه ، بل يقبل فى موعده المحتوم ويفرض قانونه الضرورى ، وإذا بالشاعر ينجز عمله فى ساعات أو أيام معدودة ، كما فعل فى فرتر وفى معظم قصائده وقصصه الصغيرة ، أو فى شهور قليله لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، أو فى سنوات تمتد امتداد العمر كله !

ومسرحية تاسو من هذا النوع من الأعمال الشعرية التي بدأها الشاعر ثم انتظر ما يزيد على ثماني سنوات حتى تم لها النضج . فنحن نعثر على أول أثر لها فى ملاحظة دونها فى مذكراته اليومية فى الثلاثين من مارس عام ١٧٨٠ حيث يقول : « إبتكار طيب : تاسو» . ولكن يبدو أنه لم يبدأ فى الكتابة إلا بعد هذا التاريخ بفترة طويلة . تشهد على ذلك ملاحظة أخرى سجلها فى مذكراته اليومية فى الرابع عشر من أكتوبر من نفس السنة حيث نجده يقول : بدأت الكتابة فى تاسو . ثم تتتابع رسائله فى الشهرين التاليين إلى حبيبته المشهورة « فراوفون شتاين » فيحدثها عن مشروعه الجديد . ويواصل العمل فى مسرحيته إلى أوائل عام ١٧٨١ ، تشهد على ذلك رسالة كتبها إليها من فيمار فى العشرين من أبريل حيث يقول : « لاأريد أن أقول لك شيئا عن نفسى ولا عن الغد . لقد تعبدتك وأنا أكتب فى تاسو. روحى كلها لديك . اليوم أريد أن أنشط للعمل . »

ويبدو أن جوته قد استطاع أن يقطع شوطا كبيراً فى مسرحيته ، بحيث استطاع فى اليوم العاشر من نوفمبر أن يقرأ المشهد الأول منها على صديقه « كنيبل » وأن يتم الفصل الأول كله ويشرع فى الفصل الثانى . ولكن العمل توقف من جديد على أواخر ذلك العام ، بحيث نجده يتحدث فى إحدى رسائله التى كتبها فى ذلك الحين عن المسرحية الناقصة . ويبدو كذلك أنه عاد إليها فى ربيع سنة ١٧٨١ ، وأنه قد بلغ فيها ما يشبه النهاية المؤقتة . مهما يكن من شىء فقد كتب جوته مسرحيته فى هذه المرحلة بالنثر الشعرى أو بالشعر المنثور كما نقول اليوم ، ثم عاد إلى التفكير فى تعديلها وإعادة صياغتها شعراً فى أثناء رحلته المشهورة إلى إيطاليا ، بين سنتى ١٧٨٦ و١٧٨٨ حتى أتمها فى صورتها النهائية المعروفة فى سنة ١٧٨٩ . وإذا أردنا أن نتتبع خطواته فى هذه المرحلة وجدناه يكتب من روما إلى صديقه « كنيبل » رسالة بتاريخ

١٩ فبراير سنة ١٧٨٧ يقول فيها : « أنا الآن أعمل فى تاسو التى ينبغى الانتهاء منها ». ويدون فى مذكرات رحلته الإيطالية وهو فى طريق البحر من نابولى إلى « بالبرمو » هذه السطور فى الثلاثين من مارس من نفس السنه : .. « لم آخذ معى من بين أوراقى كلها سوى الفصلين الأول والثانى من تاسو اللذين كتبتهما منذ عشر سنوات ولم يزالا فى خطتهما وسير أحداثهما شبيهين بما أفكر فيه اليوم — كان فيهما شىء من النعومة والضبابية لم يلبث أن اختفى عندما غيرت رأيى فيهما فأحكمت بناء الشكل وأدخلت فيهما الوزن والإيقاع » .

وواصل جوته تفكيره فى مسرحيته وراح يتعذب بينه وبين نفسه فى إعادة صياغتها من جديد . فهو يقول فى اليوم الأخير من شهر مارس فى مذكرات رحلته : « .. بدأت أمواج البحر ترتفع ، ومرض أغلب المسافرين .. وبقيت فى مكانى المألوف ، أفكر فى المسرحية كلها من أولها إلى آخرها » ثم يقول فى اليوم التالى مباشرة : « تجرأت أحيانا على الصعود إلى ظهر السفينة ، ولكننى لم أدع مشروعى الشعرى يغيب عن بالى ، حتى استطعت إلى حد كبير أن أتحكم فى المسرحية كلها » . ويواصل كلامه فى الثانى من إبريل فيقول « وجدنا أنفسنا فى الثامنة صباحا أمام « بالبرمو » . فقد كانت خطة هذه المسرحية قد ازدهرت فى الأيام الأخيرة فى بطن الحوت » .. ومع هذا كله يبدو أن الشاعر لم يكن قد غير تغييراً يذكر فى النسخة الأولى التى كتبها نثراً ولم يعثر عليها الباحثون حتى اليوم. وقد رجع فى الفصلين اللذين أتمهما منها ، ثم عاد فيما بعد إلى صياغتها شعراً إلى حياة الشاعر الإيطالى « توركواتو تاسو(١) »

(١) **توركواتوتاسو** (ولد فى سورنت فى سنة ١٥٤٤ ومات فى روما فى سنة ١٥٩٥) من أكبر الشعراء الايطاليين ، ومؤلف الملحمة الوطنية الكلاسيكية فى أواخر عصر النهضة . كان أبوه «برناردو» شاعر ملاحم وموظفا فى البلاط =

كما كتبها « جوفانى باتيستا مانـــسو » ، وملأهـــا دون ترو أو تدقيق بالخرافات والأقاصيص عن حياة هذا الشاعر الكبير . ومع ذلك فقد استفاد شاعرنا كثيراً من القصةالتى اخترعها (مانسو) من خياله وزعم فيها أن تاسو قد هام حبا بالأميرة ليونوره شقيقة ألفونس الثانىأمير « فرّارا » الذىاستضاف الشاعر ورعاه .

لم يشعر جوته بالحاجه إلى كتابة مسرحيته فى ثوب شعرى جديد إلا أثناء

= درس القانونوالفلسفة والبلاغة فى «بادوا وبولونيا» ثم التحق فىسنة ١٥٦٥، بخدمة الكاردينال «لويجى دسته» فى مدينة «فرارا» ، واكتسب صداقة الامير «الفونس الثانى» واصبح شاعر البلاط ، وعاش محاطا بالرعاية والتكريم حتى انتابته الشكوك الدينية والنفســـية فأصيب بجنون الاضطهـــاد أو بجنون الكآبة وهرب سرا الى شقيقته «كورنيليا» فى مدينة «سورنت» . رجع مرتين الى «فرارا» ، غير أن حالات الجنون عاودته فادخل فى مستشفى «سانتا انا» فى سنة ١٥٧٩، ، وبعد أن غادر المستشفى فى سنة ١٥٧٩ عاش بقية حيـاته شريدا هائما على وجهه . ألف عددا كبيرا من القصائد التى حاول فيها احياء التراث الشعرى الايطالى الذى أسسه «بتراركا» ، وبعد ان الف مأساة على غرار أوديب كان نصيبها الفشل ، وضع مسرحيته الرعوية أمينتا فى ســـنة ١٥٧٣، التى تميزت ببساطتها وصدقها والفتها الموسيقية وتعد فى نوعهـــا من أنجح الأعمال الشعرية فى الأدب الايطالى . أما عمله الرئيسى فهو ملحمتـه الوطنية القـــدس المحررة La Gerusalemme liberata (١٥٨١) وتصور تحرير جيش الصليبيين تحت قيادة «جوتفريد فون بويون» لمدينة القـــدس . والملحمة نسيج كبير من حكايات البطولة والحب والفــداء ، ولـكنها تدور أساسا حول هذه الحملة الصليبية . وقد تردد «تاسو» طويلا فى نشر ملحمته وراح يأخذ آراء كبار الشعراء فى عصره حتى وصل به الأمر الى تقديم نفسه لمحكمة التفتيش لتختبر ايمانه وتجيز ملحمته . وقد الف فى أواخر حياته (١٥٩٣) ملحمة أخرىبعنوان القدس المفتوحة La Gerusalemme conquistata وهى ملحمة دينية خالصة ليس لها قيمة شعرية تذكر . وتعكس أشعار «تاسو» مشاكل عصره التى كانت سببا قيما أصابه من كآبة وتشكك انتهيا به الى الجنون والضياع نتيجة لانتشار الاصلاح الدينى المضاد وغلبة التشكك فى أمور الدنيا والآخرة .

رحلته فى إيطاليا . لقد أحس بأن عليه أن يستبعد منها الليونة والغموض ، فيحكم بناء شكلها ويصوغها فى إيقاع شعرى يليق بموضوعها الرقيق النبيل ، ألا وهو الصراع الخالد بين الشاعر والواقع ، وبين عالم الفن وعالم السياسة . ولقد زاد هذا الإحساس لديه حتى كاد يصبح أزمة حادة يعبر عنها قوله فى أثناء زيارته الثانية لمدينة روما فى اليوم الأول من فبراير سنة ١٧٨٨ : « .. ثم أعانى أزمة جديدة ، لا يستطيع أحد أن يشير على فيها أو يعيننى عليها . يجب أن تصاغ « تاسو » صياغة أخرى ، فما لدى منها الآن لا ينفع فى شيء ولا يمكننى أن أختمه أو أقذف به بعيداً . هكذا حكم الله على الإنسان بكل هذا العناء ! » وتلح عليه الأزمة فى أواخر مدة إقامته الثانية فى روما . فها هو ذا يقرأ من جديد عن حياة « تاسو » كما كتبها « أبانى بيير أنطونيو سيراستى » ، وكانت قد ظهرت فى روما فى سنة ١٧٨٥ . ويعكف على دراسة هذا الكتاب ، ويأخذ منه أشياء جديدة عن الصراع الذى دار بين « تاسو » وبين رجال البلاط والسياسة كما يتعرف على شخصية « أنطونيو مونتكاتينو » الذى سيقوم بدور هام فى المسرحية ، ويساعد مع صراع الحب اليائس على بلوغ الأزمة فى نفس « تاسو » إلى ذروتها ، حتى يصل الصدام بينه وبين عالم السياسة والواقع الذى يمثله « أنطونيو » إلى قمته فى جنونه الأخير .

ويبدو أن جوته قد ضاق بالمسرحية أو تهيب من إعادة صياغتها . غير أن سحر شخصية « تاسو » كان أقوى من كل تردد ، وطبيعته كانت تنبع من أعمق أعماقه ، بحيث نضج العمل كله على أواخر رحلته الإيطالية ، فأقبل فى خريف ١٧٨٨ وربيع ١٧٨٩ بكليته على العمل حتى لنجده يكتب إلى صديقه وراعيه الأمير « كارل أوجوست » فى فبراير ١٧٨٩ فيقول : « إن تاسو ينمو كشجرة البرتقال فى بطء شديد . فلعله أن يؤتى ثمارا حلوة . » واستطاع الشاعر أن يتم

مسرحيته فى شهر يونيو عام ١٧٨٩ ، وأن ينشرها فى المجلد السادس من طبعة أعماله الكاملة .

★ ★ ★

ما من عمل مسرحى يخلو من الصراع أو يستطيع أن يستغنى عنه . ولقد تحدث جوته بنفسه عن الصراع فى هذه المسرحية فوصفها فى صورة عامة مجردة بأنها تعالج موضوع التنافر بين الموهبة وبين الحياة . كما وصف أحد النقاد تاسو بأنه « فرتر » متطرف أو مبالغ فى لهيب حماسه وعواطفه .

والحق أن هذا هو الانطباع الأول الذى يشعر به القارىء من المسرحية ، دون حاجة منه إلى مزيد من التعمق والتحليل . ففى المسرحية عالمان يواجه كل منهما الآخر ويصطدم به ؛ هناك عالم المجتمع والسياسة ، يمثله الوزير « أنطونيو » والأمير « ألفونس » والدوقة « ليونورا سانفيتاله » . وهو عالم تغلب عليه روح الحكم والسيادة ويتميز بوضوح الرؤية العقلية ، وطموح الغريزة العملية . وهناك عالم الشعور والفن الذى يرفرف فيه « تاسو » كالطائر الوحيد فيحلق إلى أعلى القمم ويهبط إلى أسفل الأعماق ، ويهيب دائما بعظمة الماضى ويحيا على ذكرى الشعراء العظام . ثم يحاول أن يعيش فى الحاضر أو ينسجم مع الواقع فيشعر بعجزه ، ويزداد إحساسا بانكساره . إنه عالم المطلق والجوهر والفن النقى الخالص الذى لا يمكن أن يقاس به العالم السابق أو يرتفع إلى مستواه . غير أن هذا التنافر بين العالمين لا يستطيع وحده أن يفى مسرحيتنا حقها أو يفسر مأساة بطلها . فوجه الخطورة فيه أنه قد يغرينا بالتفسير النفسى لشخصية البطل ، أو إرجاع موقفه التراجيدى إلى ما يوصف به من شذوذ أو تطرف أو جنون وهى أمور عرضية لا يمكن أن تنشأ عنها مأساة حقيقية . ذلك أن سر مأساة « تاسو » أنه يحس كما لا يحس أحد من المحيطين به بذلك الطموح

المطلق الذى ينزع إليه الفنان بطبيعته ، كما يشعر بالعجز الضرورى لهذا الطموح ، ويرفض فى الوقت نفسه أن يقتنع به أو يستسلم له . هذا الخلاف الأساسى بين عالم الخيال وعالم الواقع هو الإطار الذى تدور فيه أحداث المسرحية . وهو خلاف يبلغ من الشمول والعمق حدا تتصدع معه العلاقات الإنسانية بين الأفراد ، كما يتصدع وجود البطل نفسه من جذوره . ذلك لأنه ــ مثله فى ذلك مثل هاملت ــ يسمع صوتا لا يسمعه أحد سواه ، ويكلف برسالة لا يستطيع أن يحققها فى الواقع على الوجه الذى يرضيه، ويحمل أمانة المطلق أو الحقيقة أو الفن ، بغير أن تكون لديه الوسائل الكفيلة بأدائها فى دنيا الأرض والواقع ، أو بغير أن يجد فى هذا الواقع أى استعداد لتلقيها . إنه يجد نفسه ملقى به فيما يمكن أن نسميه « منطقة القدر » يحيط به نظام من الأشخاص والعلاقات كرس كل جهده لتحقيق الأهداف والمنافع . وهو يشعر بعجزه عن تعديل هذا النظام أو الاندماج فيه . والمشهد الثالث من الفصل الأول أساسى فى فهم المغزى العام من المسرحية وإلقاء الضوء على موقفها من الزمن والتاريخ . فنحن نرى فى هذا المشهد كيف ينعزل وجود الشاعر وتنعزل كلماته عن عالم الواقع الذى يعيش فيه وكيف يفقد هذا العالم الأخير روحه ومعناه . ولذلك فإن « تاسو » لا يتعب من التعبير عن شوقه إلى الزمن الماضى لأنه يجد فيـــه ــ على خلاف الحاضر المحيط به ــ أن الحقيقة والواقع ، والشاعر والبطل ، والحكمة والفعل تنجذب إلى بعضها بقوة أشبه بقوة المغناطيس. والحديث عن اللقاء بين « تاسو » والأميرة لا يبعد بنا عن موضوع المسرحية كما حددناه فى السطور السابقة. فقد كان هذا اللقاء هو نواة المسرحية كما تصورها جوته فى البداية ، ولعله كان هو الباعث الذى دفعه إلى كتابتها بعد أن وجد فيه صدى لحياته وعذابه فى ذلك الحين . وأهم ما ينبغى إبرازه فى هذا اللقاء هو تلك العناصر التى تشهد على صلة القربى التى تربطها بفلسفة

أفلاطون . وقد تنبه الباحثون إلى ذلك وأكثروا من الإشارة إليه . وليس من قبيل الصدفة أن نسمع الدوقة «ليونورا سنفيتاله» تصف الأميرة فى نهاية المشهد الأول من الفصل الأول فتقول إنها تلميذة أفلاطون :

« أمثلك يا تلميذة أفلاطون لا تفهم ما تجرؤ مستجدة على الثرثرة به ؟ »

وذلك بعد أن وصفت شاعرنا قبل ذلك بسطور قليلة وصفا لا ينطبق إلا على أفلاطونى يتأمل المثل أو يتملى النموذج الأوحد الأسمى لكل ما فى الواقع من صور الجمال :

إن روحى الخصب يمجد صورة واحدة فى كل أبياته وقصائده .
أحياناً يفتنه سناهـــا المضىء فيرفعهـــا إلى السماء المزدانة بالنجوم
ويسجد أمامها سجود العـــابد كما تفعل الملائكة فوق السحـــاب .

* * *

المهم على كل حـــال هو التفسير الميتافزيقى للجمال والعشق (الإيروس) الذى يحس به كل من «تاسو» والأميرة . فتاسو يشعر من أول لقاء له مع الأميرة بأن جمالها يأسره . ولعله قد شعر قبل ذلك بأن هذا الجمال نموذج عال يفتقر إليه الواقع ، أو بأن وجودها قد تشكل بالحقيقة والجمال فى صورة يعجز عنها الواقع . ولقد ظل يقنع نفسه بهذه الفكرة الأفلاطونية الخالصة حتى اعتقد أن المثل الأعلى للوجود قد تحقق فى الأميرة ، بعد أن ضاع من العالم المحيط به ، وأصبحت فى نظره خيالا من الماضى أو مثالا من المثل البعيدة عن عالم الواقع والتاريخ !

وليست الأميرة أقل منه إيمانا بهذه المثل العالية أو القيم الأخيرة ، ولا هى أقل منه شوقا إلى إثراء الحاضر البائس بالجمال المثالى . ولكن إذا كان هذا العشق المشترك هو الذى يربط بينهما برباط من التقدير والإعجاب فإن

هناك شيئا آخر يفرق بينهما تفرقة شاسعة . فالأميرة تؤمن بأن مثال الجمال لا يتحقق فى الواقع أو بأن لحظة تحققه لم تأت بعد . وهى تؤمن بذلك إيمانها بقدر قاس أو قانون صارم لا سبيل إلى الإفلات منه . وطاعتها لهذا القانون تكسب شخصيتها مسحة من الكبرياء الحزينة أو الحزن المتكبر ، وتطبع حياتها وسلوكها بطابع الزهد والصدود الذى عرفت به شخصيات نسائية أخرى فى أعمال جوته، من أهمها شخصية « أوتيليه » فى روايته « الأنساب المختارة » .

وقد ساعدت على هذه المعرفة الأليمة بتعاسة الواقع وبؤسه تجارب شخصية عديدة مرت بحياة الأميرة . فلقد مرضت فى شبابها مرضا أشرف بها على الموت ، كما عانت أمها المسكينة من قدر قاس لا يرحم . وطبيعى أن أمثال هذه التجارب الشخصية لا تكفى وحدها لطبع شخصيتها بطابع الاتزان والتعفف والزهد اليائس الذى تتميز به . بل إن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن هذا القدر الشخصى لم يكن إلا مقدمة لقدر أعم وأشمل ، وضعت فيه هى و« تاسو »، وتعلمت منه أن الزمن ضنين والواقع فقير . وإذا كان « تاسو » لا يزال يحاول أن يطوع هذا الواقع لمثله وأحلامه ويفرض على ذلك الزمن قانونا لم يأت أوانه ، فقد عرفت هى أن الواقع قد اغترب عن المثال ، والفعل قد انشق على المعنى ، فوفرت على نفسها آلام خيبة الأمل المتكررة التى يعانيها « تاسو » . وليس معنى هذا أنها استسلمت لمرارة الزمن ففقدت الإيمان بكل قيمة أو معيار . بل معناه على العكس من ذلك أنها راحت توجه حياتها على هدى قيم موضوعية متزمتة لا مكان فيها للرغبة أو الطموح ، وأنها قد عرفت — والمعرفة مريرة — فأخذت نفسها بفضائل الصبر والاحتمال والحرمان . إن أكثر أحاديثها مع « تاسو » تشهد على ذلك ، فهى تحاول أن تهديه

إلى التعقل والاتزان ، وتحاول أن تريه الواقع البائس على حقيقته ، وهو لا ينفك سادرا فى أحلامه ، تائها فى ضلال حبه . ومع أنها تشعر بغربتها عن العالم المحيط بها ، وتحس بوحدتها فى البلاط وعزلتها عن الدوقة «ليونورا سانفيتاله» أقرب الناس إليها ، فهى لا تتردد مع ذلك فى الإيمان بالقيم والتقاليد التى تتحكم فى عالم البلاط الذى نشأت وتربت فيه . وإذا كان هذا الإيمان هو الذى يجمع بينها وبين شقيقها الأمير والوزير «أنطونيو» والدوقة «ليونورا» ، فهو كذلك ما يفرق بينها وبينهم . ذلك أنها تعتقد أن القيم والعادات السائدة فى حياة القصر شحيحة فى هذه الفترة المحدودة من الزمن ، وتعتقد فى نفس الوقت أن هناك قيما أعلى منها لم يئن أوان تحققها فى عالم الواقع . ولعل هذه العقيدة هى التى تجمع بينها وبين «تاسو» وتجعلها تقف منه موقف الإعجاب الصامت ، والحب الزاهد الحنون . وإذا جاز لنا أن نتحدث عن خطأ «تاسو» أو خطيئته ، فإن فى استطاعتنا أن نقول إنهما يكمنان فى إساءة فهمه للحظة المناسبة ، ومحاولته اليائسة للتوفيق بين المثال والواقع والتوحيد بين الروح والفعل ، فى زمن قدر عليه أن يشهد الفراق الحاسم بينهما . إنه يريد أن يثرى عالما حكم عليه بالفقر ، ويحقق المطلق على أرض الواقع النسبى . ومن هنا فإن المسرحية تفرض ثلاث مراحل زمنية تتتابع واحدة بعد الأخرى على نحو يشبه ما نجده فى تصور أفلاطون :

فهناك زمن الوحدة المثالية أو الأسطورية بين عالم مثالى وآخر واقعى ، يتبعه زمن تمت فيه الفرقة بينهما فكان الانقسام إلى جسد وروح ، وفعل وفكر ، وقد يأتى بعدهما زمن ثالث يتحقق فيه الصلح من جديد ، وتتلاشى الثنائية الظالمة فى نعيم الوحدة والسعادة الخالدة .

وليس للإنسان يد فى هذا اللحن الزمنى المتتابع . وليس عليه كذلك

إلا أن يعترف به ويندمج فيه . أما أن يقف منه موقف الاعتراض والاحتجاج فلن ينتهى منه إلا إلى نهايته ، ولن ينتج عنه سوى الندم أو الجنون أو السقوط فى هاوية المأساة .

★ ★ ★

وقد أشار كثير من النقاد فى هذا الصدد إلى أوجه التشابه العديدة بين تاسو وبين مسرحية سوفوكليس أوديب ملكا (١) وراحوا يفتشون عن عناصر الاتفاق بينهما فى الموضوع والأسلوب والحوار . ولعل الدافع لهم على ذلك أن تاسو من الأعمال الفنية القليلة التى تبين لنا كيف يترك الزمن أثره على الإنسان فيحدده ويطبعه بطابعه ويصبح قدره ومصيره . ومن هنا كان للحياة الوجدانية والنفسية بما فيها من عذاب الفراق والتذكر والانتظار والأمل والحنين إلى الماضى أهمية كبيرة فى هذه المسرحية ، شأنها فى ذلك شأن مسرحيات جوته التى تهتم بعالم الباطن أكثر بكثير من اهتمامها بعالم الظاهر والأحداث الخارجية . ولعل هذا أيضا هو الذى جعل الشاعر يلجأ فى بناء مسرحيته إلى الشكل الإغريقى القديم ليصب فيه موضوعاً أو مشكلة حديثة ، يتركز الصراع الحقيقى فيها فى باطن الإنسان .

ومع أن مأساة أوديب فى صميمها مأساة ميتافيزيقية خالصة ، ومأساة تاسو مأساة تاريخية مرتبطة بزمن معين إلا أنهما متشابهان من حيث الشكل التحليلى الذى يتميز به بناؤهما الدرامى . فالأمر يدور فى تاسو وفى أوديب حول الكشف التدريجى عن مشكلة أو مظهر فاسد كامن فى طبيعة البطل نفسه ، تزيده حيرته وتخبطه تعقيدا على تعقيد . ومن ثم كان العذاب

(١) كارل رينهارت ، **الأعمال والأشكال** ، جودسبرج ١٩٤٨ ، ص ٤٤٤ وما بعدها .

الوجدانى فى تاسو وفى أوديب أهم من الفعل ، والمعرفة المريرة التى تتكشف شيئا فشيئا أخطر بكثير من التطور التاريخى . ولذلك نجد البداية والنهاية فى كليهما أشبه بصورتين متقابلتين . «فأوديب» فى بداية المأساة هو منقذ الجميع وفى نهايتها المنبوذ من الجميع ، و«تاسو» فى بداية المسرحية هو الشاعر الذى يحتفل الجميع بتتويجه ولكنه فى نهايتها المطرود الذى حكم عليه بالدمار والانكسار . وإذا كان هناك فرق بينهما فإن أوديب قد حكم عليه قدر ظالم مجهول بالتردى فى أخطاء لا ذنب له فيها ، بينما أخطأ «تاسو» بخياله الجامح وعاطفته المتهورة فى حق الزمن ونظامه ، وحاول أن يفرض الحقيقة الشعرية على الواقع العملى الذى لم يتأهب لها . ولكن البطل هنا وهناك بدأ عظيما فى مجده وانتهى عظيما فى انهياره ، وذلك هو جوهر المأساة .

★ ★ ★

ماذا نقول عن هذه القصيدة الطويلة الحزينة التى نسميها تاسو ؟ أهى دراما أم مأساة ، أهى قديمة أم حديثة ؟ إننا نحار أمام هذا النسيج الرقيق الدقيق الذى لا يكاد يحدث فيه شىء ، ومع ذلك فكأن الضرورة هى التى نسجت خيوطه ، ونعيش فى عالمه الأنيق الجميل ومع ذلك يترك فى نفوسنا شيئا يشبه الفزع الذى تتركه فينا المآسى الإغريقية حين تشعرنا بقسوة القدر الظالم المجهول . كيف يمكن أن تكشف هذه الحياة المنمقة الزاهية عن هوة من الحزن بلا قرار ، وكيف يؤدى كل ما فيها من جمال ونظام وسمو فى الأخلاق والتقاليد إلى تحطيم نفس رقيقة حساسة ؟ أيمكن أن تمرض هذه النفس وتيأس فى عالم يحبها ويرعاها ويدللها ويكاد يؤلهها ؟ أم أن هذه الحياة المهذبة الراقية ليست إلا واجهة مصطنعة تخفى العداوة الحقيقية

للشاعر الأصيل ، وتكره عالمه المترفع عن عالمها الغارق فى التكلف والتظاهر والمنافع والأغراض ؟ ثم من المذنب فى مأساة شاعرنا ؟ أهم سكان البلاط الذين لا ندرى إن كانوا أصدقاءه أو أعداءه ولا نعرف إن كانوا يضمرون له الشر أو الخير ؟ ! أهم جماعة يتعاون كل فرد فيها على إنماء موهبته أم يتآمر على عبقريته فيستغلها لمصلحته ، ويبطش بها إذا وجد أنها لم تعد تحقق أهدافه ؟ أم يكون الشاعر نفسه هو المذنب لأنه تجاوز الحد الذى كان عليه أن يلتزم به ، وراح يغوص فى وهم خداع جعله يقضى على سعادته ويلقى بالمسئولية على المحيطين به ؟ ألا نحطم بذلك صورة الشاعر الذى يحمل رسالة فريدة ويعيش – وهذا حقه – فى عالم لا يصح أن نتدخل فيه أو نحاول تشكيله على هوانا ؟ ألا نسىء إلى الشعر نفسه حين نصور «تاسو» رجلا مريضا يسوقه الفشل النفسى خطوة فخطوة إلى الدمار ؟ إن الامر فى تاسو كما قلنا يتعلق بالكشف لا بالتطور ، وبالمعرفة لا بالحدث ، وبالعذاب لا بالفعل . ولكن ما الذى يتكشف هنا ويعرف ويعانى ؟ لو دققنا النظر فى النص الشعرى الذى بين أيدينا لتبين لنا أن الأمر فيه ليس أمر صراع درامى عادى بين نفس عاطفية حساسة وبين عالم الدسائس والمؤامرات المحيط بها ، بل إن موضوع المسرحية هو العذاب الذى يكابده الشاعر ، والحديث الذى يدور بينه وبين نفسه المنطوية ، والتناقض الخفى الذى كان يخفيه فى صدره فساعد الوسط المحيط به ، بإرادته أو بغير إرادته ، على كشف الغطاء عنه . وبذلك تكون تاسو مأساة حديث ذاتى (مونولوج) ، أو لحن فاجع وحيد لا تقوم فيه بقية الشخصيات إلا بدور الأصوات المصاحبة التى تغطى عليه أحياناً وتبرزه أحيانا أخرى .

إنها لا تمثل شخصيات تصطدم بالبطل أو تقف معه ، كما هو الحال

فى الفعل الدرامى المعتاد ، وإنما هى أشكال وصور تنعكس عليها نفسه وتشدها إلى وجدانها الوحيد وتفسرها تفسيراً شعرياً خاصاً بها . ولا يمنع هذا من أن تحتفظ بشخصيتها المستقلة ، وكيانها الواقعى الذى يعجز الشاعر عن فهمه ، ويرى نفسه مستبعداً منه . وليس من المهم أن تكون هذه الشخصيات معه أو عليه — فالواقع أنها جميعا تشجعه وتسترضيه وتخطب وده — بل المهم أن لكل منها وجوده الواقعى الذى يختلف عن وجوده الشعرى الحالم ، وأن هذه الحقيقة وحدها هى التى تدمر حياته وتكشف له عن مأساة موقفه ، وذلك بمجرد أن يتضح له أن الموهبة لابد أن تصطدم مع الحياة . وهكذا لا تقول المسرحية كلها أكثر من أن الوجود الشعرى وجود مأساوى. لا يقتصر ذلك على مدينة «فرارا» وحدها ، بل كذلك كان الأمر وكذلك سيكون فى كل مكان وزمان . ويزيد من قسوة هذا الإحساس أو من مرارة هذه المعرفة أن شاعرنا يعيش فى وسط مدنى مهذب راق — ولقد أوهم نفسه بأنه واجد فى هذا الوسط الحالم الأنيق (على الأقل من الظاهر) ما يستجيب لصوته الشعرى الباطن . ولكن المأساة كلها لم تصبح مأساة إلا لأنها تكشف النقاب شيئا فشيئا عن هذا الوهم ، وتبين أن الذوق والتمدن لا يكفيان لإنقاذ الشاعر الذى كتب عليه أن يحيا ويموت وهو استثناء عظيم. تلك هى المعرفة التراجيدية التى يتعلمها «تاسو» ونتعلمها منه . وذلك هو سبب هذا الحزن الهادىء الفاجع الذى تملؤنا به هذه المسرحية ، على الرغم من أننا نعلم أن الشخصيات كلها — بما فى ذلك الوزير «أنطونيو» إذا أحسنا فهمه — تتضافر على حمايته وتتنافس فى رعايته ومكافأته والعطف عليه . ولكنها لا تعلم أنها بذلك تزيد حياته تهديداً ، وأنها بوجودها الواقعى وعالمها غير الشعرى تزيده إحساساً بوحدته فى عالمه الخيالى المثالى غير المحدود .

* * *

ما قيمة الشاعر بالنسبة لذلك العالم وما دوره فيه ؟ إن المشهد الأول من المسرحية يرمز للإجابة على هذا السؤال . فتاسو يظهر حاملا فى يده ملحمته الشعرية التى فرغ من كتابتها ، وإن لم يفرغ بعد من التشكك فيها والتفكير فى إكمالها ! وتتقدم الأميرة لتضع على رأسه إكليلا من الغار كان المفروض أن يزين تمثال الشاعر الرومانى الأكبر فرجيل . فاذا تأملنا هذا المشهد من ناحية البلاط وجدناه مظاهرة للتفاخر والإعلان ، ومرآة تعكس زينته وأبهته. إن الأمير «ألفونس» محتاج إلى موهبة الشاعر لأنه سيظل بدونها فى صف البرابرة المتوحشين، ولأنها تزيد أمجاده الواقعية أمجاداً أخرى فى عالم الشعر والخيال . إنه يستطيع الآن أن يقول للناس : أنظروا ! إن عندى إلى جانب القصور والجيوش والآثار القديمةوالخدم والحشم شعراء وكتاباً وفنانين ! والدوقة«ليونورا سانفيتاله» محتاجة إليه لأنها تريد أنترىنفسها منعكسة على مرآة روحه الجميلة ولأنها ـ وهى الأنانية المغرورة بفتنة الأنوثة ـ تستطيع أن تضيفه إلى الزوج والأطفال وتجرجره خلفها كأنه ذيل ردائها الأنيق ... إنها سيدة المجتمع الرائعة التى يهمها أن تضيف إلى ثروتها شاعرا موهوبا مسكينا ! وإذا كانت تلجأ إلى المؤامرة التى لا ضرر منها ، فلأنها تريد أن تستأثر به لنفسها ، وتظهر مهارتها فى إتقان ألعاب القصور . أما الأميرة فهى فى حاجة إليه لأن حياتها التى عانت من المرض والعذاب محتاجة لمن يرد إليها الحياة ولأنها ــ وهى تلميذة أفلاطون ــ تعلم أن الشاعر وحده هو الذى يستطيع أن يسمو بها إلى عالم التجانس والصفاء والنقاء . فالشعر بالنسبة إليها هو الوسيلة الوحيدة التى بقيت أمامها لاحتمال الحياة المسرفة فى المادية والغلظة والجهامة . إن الأميرة لاتتظاهر كغيرها، وهى أبسط نفسا وأرق حسا من أن تهين الشاعر بالعطف عليه . ذلك لأن أهم ما يميزها هو البساطة والسمو والكبرياء ، حتى لتكاد كل كلمة تقولها وكل إشارة تصدر عنها

أن تنطق بالترفع والابتعاد . إنها أفلاطونية تفكر تفكير الفيلسوف العظيم وتشتاق إلى الجوهر الباقى وراء المحسوس المتغير ، وموقفها من كل ما هو مادى موقف الترفع والتعفف ، وحديثها إلى « تاسو » حديث روح إلى روح ، لا حديث امرأة إلى رجل . فاذا ظن الشاعر فى عنفوان عاطفته الملتهبة أنها تبادله حبا بحب ، أسرعت تزجره عنها فى رفق تارة وفى عنف تارة أخرى . ذلك لأنه لم يكن بالنسبة إليها ولن يكون أكثر من واسطة إلى « العهد الذهبي » الذى مضى ولن يعيده إلا الأخيار والطيبون . صحيح أنه « وسيلة » إلى هدفها ، ولكن ما أعظم الفرق بين هذا الهدف وبين أغراض المحيطين بها فى البلاط .. !

إذا كان هذا هو موقف الجميع من مشهد التتويج فما أشد ما يختلف موقف « تاسو » منه ! فليس الخيال والشعر بالنسبة إليه تجميلا للحياة أو زخرفة لها ، بل إن الحياة عنده هى الخيال ، والشعر هو الوجود . ولذلك فإن التتويج يفقد عنده قيمته المؤقتة المحدودة ، وينقله إلى عالم غير واقعى ، إلى وطن النشوة الخلاقة والتجربة الشعرية الذى يوجد فى كل مكان ولا يوجد فى أى مكان . ولذلك فهو يدهش الجميع بتردده عن قبول الإكليل ، ويغضبهم برعبه المفاجىء الذى يجعله يقول :

دعونى أتردد ، فلست أدرى
كيف يمكننى أن أعيش بعد هذه اللحظة

وتنقلب لحظة التكريم إلى شقاء لا حد له . فهو يحس كأن الإكليل يحرق شعره ، ولهيب الحمى يعصف بدمه . ويشعر أن التاج الذى لم يكد يستقر على جبهته قد انتقل به إلى جنة الخالدين ، وطار به إلى مملكة قديمة مسحورة يتحد فيها البطل والشاعر ، وتتعانق الفروسية والفن . ولكنه يشعر كذلك

شعوراً خفياً بأنه قد صار غريباً عن كل الوجوه التى تنظر فيه أو تبتسم له ، وبأن «فرارا» ليست هى وطنه الذى كان يحلم به ، بل إنه ككل الشعراء لا وطن له ، حكم عليه بمحض وجوده كشاعر أن يعيش مهدداً ، ضائعاً ، يتحدث فلا يفهم ، ويقول فلا يسمع .

ويتضح الدور الذى يمكن أن يقوم به الفن عامة والشعر بوجه خاص فى مثل هذا المجتمع عندما يظهر الوزير «أنطونيو» فى المشهد الرابع الذى يلى المشهد السابق .

فالأضواء تسلط على الجانب السياسى والعملى فى حياة البلاط ، بحيث لا يعود هناك مجال للشك فى أن العلم والفن والشعر لا وزن لها إلا اذا كانت وسيلة لخدمة السياسة وزينة على صدور الحكام . وإذا كان «أنطونيو» — وهو الوزير الناجح الذى ابتعد عن البلاط فترة من الزمن فى مهمة ناجحة — يعبر عن غضبه وسخطه المكتوم على «تاسو» ، فليس ذلك لأنه يشعر بأنه غريمه الذى أوشك أن يحتل مكانه فى البلاط أو فى قلوب النساء ، بل لأنه يشعر كذلك بفطرته أن عالم «تاسو» غير الواقعى يهدد عالمه الواقعى ، وأن الخيال والشعر خطر عليه أى خطر . إنه يدافع بغريزته عن حياته ، ويريد أن يحمى نفسه من عالم الشعراء والموهوبين الذى يحس أنه غريب فيه . وليس فى الأمر شىء من سوء النية أو الحقد أو الاعتداء ، بل إنه تصرف طبيعى تمليه ضرورة عمله وحياته . ولذلك فلا يصح أن نستكثر عليه موقفه النبيل فى آخر المسرحية حين يرى «تاسو» مشرفا على الهاوية فيمد له يدا مخلصة عاطفة .

أما «تاسو» فهو يتصرف كذلك بما يتفق مع طبيعته فينظر إلى عالم السياسة المحيط به بمنظار الحلم والخيال .

إنه يحاول تحت إلحاح الأميرة أن يلتقى «بأنطونيو» ، ويمد يده إليه فى حماس لإيمانه بأن البطل والشاعر يمكن أن يلتقيا ويتحدا ، وهو شىء لا يمكن أن يحدث إلا فى العالم الذهبى المسحور الذى يحيا فيه . ويفزعه تردد أنطونيو وتحفظه . ويسرع إلى التشكك والتوهم . وتزداد شكوكه وأوهامه يوما بعد يوم حتى تنتهى به إلى الكارثة المحتومة .

ولو أنه قنع بعالمه أو سلّم باختلافه عن العوالم الأخرى ، لما فقد ثقته فى نفسه ولا كانت هناك ضرورة إلى حزنه الجارف المؤثر الذى لا عزاء فيه .

فما أقسى أن يرى نفسه ملكا فى مملكة الخيال ، ورفيقاً للأبطال والشعراء الخالدين ، ثم يرى نفسه مع ذلك يسير فى دنيا الواقع والمنافع كالشحاذ اليتيم !

ولو استطاع هذا الخيالى المسكين أن يقفز القفزة المناسبة من عالمه المسحور إلى عالم الواقع لانتشل نفسه من مهاوى العدم وحقق السعادة فى الدارين ! ولكن هل كان يستحق منا عندئذ أن نسميه شاعراً ، أم كان يصبح انتهازيا ممن تمتلىء بهم حياتنا الفنية اليوم ؟ !

إن الخلاف بين «تاسو» و «أنطونيو» خلاف أساسى بين الشاعر ورجل الحكم ، تصطدم فيه العاطفة الجارفة بالعقل الناقد المتزن . ويصل الشقاق بينهما إلى حد تبادل الألفاظ الجارحة ، فيجرد «تاسو» سيفه ويطالب «أنطونيو» بالنزال . ويتدخل الأمير بينهما ، ويعاقب «تاسو» بالحبس الانفرادى فى غرفته .

هنــا نستطيع أن نقول إن شيئاً قد حدث ، وهو أمر نادر فى هذه المسرحية ! فهذا الحادث الضئيل كان وحده كافياً للإلقاء «بتاسو» فى هاوية

الحزن والوحدة التى لا مخرج منها . إنه لم يرتكب خطأ فى حق النظام الأخلاقى ، بل اصطدم بالقواعد الشكلية . «والشكل» فى مثل هذه المجتمعات هو كل شىء . ولذلك فالأمير لا يحاول أن يعرف المخطىء من المصيب. وإذا عاقب فعقابه شكلى . لقد عفا بالفعل عن المذنب ، وترك له أن يحرس نفسه بنفسه ، أعنى أن يهرب من هذا السجن الشكلى إذا شاء . وقد كان من الممكن أن تمر العاصفة لو أن «تاسو» خضع لإرادة هذا النظام الشكلى . ولكنه لا يقدر على ذلك ولا يمكن أن يقدر عليه . ذلك لأن وجوده كله كشاعر إنما هو تمرد على الشكل . فالشكل قالب مصطنع نفرضه على الحياة ، والشاعر يعيش على الخيال الذى يفجر القوالب ويكسر الحواجز والحدود . ولو اعترف بها لأنكر نفسه. فهو الممسوس الذى تسيطر عليه قوى أقوى منه . ولذلك فليس فى قدرته أن يسلم بالحدود التى تفصل بين إرادة الذات وبين الالتزامات الواجبة نحو المجتمع .

لقد عميت عينه عن رؤية الواقع، لأن كل مانسميه بالواقع قد تحول عنده إلى خيال . إنه كالممثل على المسرح ، يسمع الكلمة التى يبدأ عندها فى إلقاء دوره ولكنه لا يكاد يسمع مايقوله سواه . ولذلك يصعب عليه أن يخرج من نفسه ، أو يعرف الموقف المحيط به على حقيقته . ولو قارنا بينه وبين «أنطونيو» لوجدنا الأخير على حق دائما ، فهو يملك كل مايفتقر إليه «تاسو» من إحساس صائب بالواقع ، وفهم لما يليق فى المجتمع وما لايليق .

غير أنه يفتقر إلى مملكة الشعر التى أغلقت بابها فى وجهه كما تعوزه القدرة على الإبداع والحماس والانطلاق . ومع ذلك فعلينا أن ننصفه فنقول إنه يدرك ما سميناه من قبل بتنافر الموهبة مع الحياة ، ويحاول أن يكفكف من غلواء «تاسو» ويقاوم تطرفه ويعيده من جديد الى أرض الواقع والمجتمع .

غير أن محاولاته النبيلة تبوء بالفشل ، لأنها موجهة إلى تاسو « الانسان » لا إلى تاسو « الشاعر » ولأنها تطبق معيارا يصلح للقاعدة لا للاستثناء ، وللكل لا للفرد . ولو استمع « تاسو » إلى نصحه لما كان هو « تاسو » ولا كان من حقنا أن نتحدث عن مأساته . فإذا كانت قوة « أنطونيو » فى خضوعه للنظام والتزامه بالأصول والحدود ، فإن قوة « تاسو » وضعفه فى آن واحد فى تمرده على كل المقاييس والأشكال ، وخضوعه لضرورة الخلق والابداع .

وإذن فقد ظل صادقا مع طبيعته كشاعر وإنسان فريد ، ولو أحنى رأسه لأصبح واحدا من مئات الشعراء الذين ازدحم بهم الأدب العالمى (والأدب العربى بوجه خاص !) وعاشوا وماتوا كالشحاذين على صدقات الأمراء والسلاطين ... !

إن من أعز أشواق الإنسانية أن يحيا الشاعر والفنان مع المجتمع فى وئام . ولكن لا ينبغى أن ننسى أن الشاعر والفنان لا يستطيع إلا أن يكون شاعرا وفنانا ، أعنى أن يعيش فى صراع دائم مع القيود والحدود ، ويحيا فى عالم خاص به يبعده بوجه من الوجوه عن المجتمع ويبعد المجتمع عنه .

فكل من جعل من الاليزيوم (جنة الخالدين) وطنه ومسكنه ، لابد له أن يحيا غريبا على الأرض مثل « تاسو » . ومع أن بلاط « فرارا » قد قدم لشاعرنا أقصى ما يقدم من واجبات الضيافة والرعاية فقد أوضح مع ذلك بصورة مفزعة أن التفاهم بين الشاعر والمجتمع يقوم دائما على سوء تفاهم ضخم . لذلك تحسن المجتمعات صنعا إذا تركت للشعراء حرية الرفض والاحتجاج وكفلت لهم حق التفرغ والاعتزال . ذلك لأنهم لا يحتجون عليها إلا حبا فيها ، ولا ينعزلون عنها إلا ليزدادوا قربا منها ومعرفة بها . كان هذا هو حق القواد والرواد دائما ، ومن أحق بالقيادة والريادة من الفنانين والشعراء ؟!

لابد أن يكون لدى الشاعر أو الفنان ما يقوله . ولعل «جوته» . لم يرد بمسرحيته تاسو أكثر من أن يقول إن وجود الشاعر عذاب . لقد صور فيها حالة نفس مريضة . ولكنه لم يقصد تصوير المرض النفسى لذاته ، بل ليوضح من خلاله طبيعة الإحساس الشعرى بالحياة ، وهو إحساس يستمد قوته من ضعفه وتعرضه الدائم للخطر والدمار . فالشعر هنا والفن عموما ليس هو الحالة السوية ، بل هو شيء غريب ، مضيع ومريض . ولا شك أن هذه نظرة رومانتيكية أو عاطفية . ولا شك أيضا أنها أثرت فى تصور الرومانتيكية للشاعر والفنان كما عبرت فى السنوات الأخيرة عن نفسها أوضح تعبير فى أعمال كاتب كبير مثل «توماس مان» . وطبيعى أن يكون «جوته» قد صور فى مسرحيته جانبا من حياته وآلامه الشخصية ، وإن لم يمنع هذا من أن تنفرد الصورة بحقيقتها المستقلة . لقد سبق أن فعل ذلك فى رواية شبابه فرتر ، فكانت تسجيلا لعذابه وخلاصا من هذا العذاب فى وقت واحد . وهو قد فعل نفس الشيء فى تاسو ، فتجاوز همومه إلى هموم الشعراء بوجه عام ، وبين أن الشاعرية فى صميمها نوع من العذاب الذى يكابده الشاعر فى العالم وفى ذاته ، ينشأ عن إفراط فى الخيال وتفريط فى الواقع . فمن طبيعة المخيلة أن تعلو وتتجاوز باستمرار ، وتتحرك حركة جارفة متدفقة تتخطى «الهُنا» و «الآن» ، ولا تعترف إلا بالماضى أو المستقبل . وقد أورد «إكرمان» حديثا له مع «جوته» فى اليوم الثامن من شهر مارس سنة ١٨٣١ ، أى قبل وفاته بسنة واحدة ، يمكن أن ينطبق على «تاسو» بصورة مباشرة . فقد قال له «جوته» إنه لا شك أن فى الشعر وبالأخص فى غير الشعورى منه شيئا شيطانيا لا يدركه الفهم ولا العقل ، ويؤثر من أجل ذلك تأثيرا «لا يمكن تصور مداه .» ولابد أن «جوته» قد أراد أن يحد من

خطر رومانتيكى كان يتهدده ويغريه بالانسياق وراء الخيال الجامح والبعد عن الأرض ونظمها وأشكالها . ولابد أنه وصل بذلك إلى الهدوء والاتزان الذى تميز به فى حياته وأعماله .

ولكن هل وصل «تاسو» نفسه إلى شىء من هذا الهدوء والاتزان؟ هل وجد فى النهاية بعض العزاء عن حزنه المنكسر الأليم ؟ وهل كان فى قدرته على التعبير عن هذا الحزن أو فى شاعريته نفسها ما يعوضه عن فشله وهوانه فى العمل والحياة ؟

لابد أنه أحس بما يشبه العزاء الميتافزيقى عن تحطم وجوده التعيس حين قال عن نفسه فى نغمة لا تخلو من الفخر والكبرياء إن الله قد أعطاه القدرة على التعبير عن عذابه حين حرم غيره من هذه القدرة وتركه أخرس من الألم :

لم يبق إلا شىء واحد : الدموع التى أعطتها لنا الطبيعة
وصرخة الألم التى يطلقها الإنسان
حين يعجز عن الاحتمال .
وأنا الذى احتفظت بهذه الهدية السامية
تركت لى فى الألم اللحن والخطاب
لأشكو همومى كلها فى نشيدى :
وإذا ما أخرس الإنسان عذابه
وهبنى الرب أن أعبر عن عذابى .

ما أجمل هذه النغمة التى وهبتها له السماء ، وما أعظم المعرفة التى تفيض — على مرارتها — بالحكمة والصفاء ، والتضحية التى قدم بها حياته قربانا للشعر والشعراء !

ملحوظة

بقيت كلمة أحب أن أسوقها عن هذه الترجمة . فقد رجعت فيها إلى النص المحقق الذى نشر فى طبعة هامبورج المشهورة لأعمال «جوته» ، بإشراف الأستاذ «يوسف كونس» Joseph Kunz كما استفدت فى كتابة المقدمة من تعليقه على المسرحية ومن الفصل الذى كتبه عنها العلامة «بنوفون فيزه» Benno Von Wiese فى كتابه التراجيديا الألمانية من لسينج إلى هيبل . وقد رجعت كذلك إلى الترجمة الفرنسية التى قام بها «هنرى توما» H. Thomas » ونشرت مع بقية مسرحيات «جوته» فى مجموعة البلياد المشهورة واستفدت منها كثيرا فى توضيح ما غمض على من النص الأصلى . ولست أدرى إن كانت هذه الترجمة قد استطاعت أن تنقل بعض ما فى الأصل الشعرى من رقة وجمال لا يوصف فالأفضل أن أترك الحكم فى ذلك للقراء !

عبد الغفار مكاوى



تأليف : يوهان ڤولفجانج جوته

ترجمة وتقديم : د. عبد الغفار مكاوى

شخصيات المسرحية

الفونس الثانى : امير فرارا .	Alfons der Zweite, Herzog von Ferrara
ليونورا فون استه : شقيقة الامير .	Leonore von Este, Schwester des Herzogs.
ليونورا سانفيتاله : دوقة سكانديانو .	Leonore Sanvitale, Gräfin von Scandiano.
توركواتوتاسو	Torquato Tasso.
انطونيو مونتيكاتينو : وزير .	Antonio. Montecatino, Staatssekretär.

«المشهد فى بلريجواردو ، احد قصور الترف».

الفصل الأول

المنظر الأول

« فنــاء حــديقة تزينه تماثيل نصفية لشعراء الملاحم » .

« يظهر فى مقدمة المسرح على اليمـين تمثال فرجيــل ، وعلى اليســار تمثـال اريوست » .

المشهد الأول

« الأميرة ــ ليونورا »

الأميرة : ليونورا ، أنت تنظرين إلى وتبتسمين
ثم تنظرين إلى نفسك وتبتسمين من جديد .
ماذا بك ؟ دعى صديقتك تعرف الخبر !
التفكير يبدو عليك ، ومع هذا يبدو عليك السرور ؟

ليونورا . أجل يا أميرتى ، يسرنى أن أرانا هنا
فى زينة أهل الريف.
نبدو كالراعيات السعيدات

ويشغلنا ما يشغل السعداء .
نحن نعقد الأكاليل . هذا الذى يزدان بالزهور(١)
يكبر شيئا فشيئا فى يدى ،
وأنت بفكرك السامى وقلبك الكبير
قد اخترت الغار الرقيق النحيل .

الأميرة : الأغصان التى جدلتها بالفكر والخيال ،
سرعان ما وجدت رأساً بها جديراً :
إنى أضعها ممتنة على رأس فرجيل .
(تضع الإكليل على رأس فرجيل)

ليونورا : وها أنا أيضاً أثبت إكليلى المكتمل البهيج
على جبهة المعلم لودفيج العالية (٢) .

---

(١) وجد جوته مشهد التتويج مصورا على غلاف الترجمة الالمانية لملحمة تاسو الشعرية أورشليم المحررة التى كان يعرفها منذ صباه .

(٢) المقصود به هو الشاعر الايطالى لودفيكو أريوستو (١٤٧٤ ــ ١٥٣٣) وكان ابوه موظفا فى بلاط أمير «فرارا» . درس القانون ثم عدل عنه الى دراسة الحضارة القديمة وفن الشعر وبدأ يكتب أشعارا باللغة اللاتينية . اضطر بعد وفاة والده (١٥٠٠) الى رعاية شئون أسرته ، فالتحق بخدمة الكاردينال «ابوليتو دسته» الذى أرهقه بالعمل مما جعله يلتحق ببلاط «الفونسو دسته» حيث قضى بقية حياته هناك . ألف مسرحيات هزلية على نمط مسرحيات «بلاوتوس وتيرنس» لتعرض على مسرح البلاط ، كما وضع عددا كبيرا من القصائد الانتقادية الساخرة التى تسمى بالساتير ينتقد فيها عصره وبيئته . ولكنه عرف فى تاريخ الأدب بملحمته الشعرية الكبرى أورلاندو الغاضب Orlando Furioso التى ألفها فى سنة ١٥٣٢ فى ستة وأربعين نشيدا وتعد أكمل الأعمال المعبرة عن عصر النهضة .

(تضع الإكليل على رأس أريوست)

هذا الذى لن تذبل دعاباته

ليأخذ حظه من الربيع الجديد .

الأميرة : شاعت مروءة شقيقى أن يرسلنا

فى هذه الأيام إلى الريف.

نستطيع أن نخلد إلى أنفسنا ونقضى الساعات

ونحن نحلم فى زمان الشعراء الذهبى .

أحب بلريجواردو ، فكم من يوم بهيج .

من أيام الشباب عشته هنا فى حبور ،

وهذه الأوراق الخضراء ، وهذه الشمس

تبعث فى وجدانى الإحساس بالزمن البعيد .

ليونورا : أجل . إن عالما جديداً يحيط بنا !

ظلال هذه الأشجار المخضرة أبدا

تغمر القلب بالسرور.

وخرير الأمواج يسعد النفس من جديد .

الغصون الشابة تهدهدها ريح الصباح .

والزهور تتطلع إلينا من أحواض الزرع

وفى عيونها الطفلية نظرة ودود .

والبستانى يرفع مطمئنا سقف البيت الزجاجى

الذى غرس فيه الليمون والبرتقال .
السماء الزرقاء تمتد من فوقنا ،
وعلى مدى الأفق يذوب الثليج .
على قمم الجبال البعيدة
ويرسل أنفاس العبير .

الأميرة : كم كنت أود أن أرحب بالربيع
لو لم يسلب منى صديقتى .

ليونورا : لا تذكّرينى ، فى هذه الساعات الحسان
بأننى ، يا أميرتى ، سأرحل عن قريب .

الأميرة : كل ما قد تهجرينه ، سوف تجدينه مضاعفا
فى تلك المدينة الكبيرة من جديد .

ليونورا : الواجب يدعونى ، والحب ينادينى
للزوج الذى طال حرمانه .
سأحضر له ولده ، الذى أسرع نموه
وزكت تربيته فى هذا العام
وأشاركه فرحة الآباء .
عظيمة هى فلورنسا ورائعة ؛
غير أن كنوزها المتراكمة
لا تعدل قيمتها نفائس « فرارا » .

إن الشعب هو الذى جعل من تلك المدينة مدينة ،
أما «فرارا» فبفضل أمرائها أصبحت عظيمة (١).

الأميرة : بل الفضل للطيبين
الذين أقبلوا إلى هنا بمحض الصدفة
وجمع الحظ بيننا وبينهم .

ليونورا : من اليسير على الصدفة أن تفرق ما جمعت.
أما الإنسان النبيل فيجذب النبلاء إليه
ويعرف كيف يحتفظ بهم ، مثلما تفعلون .
من حول شقيقك ومن حولك
تتآلف قلوب جديرة بكما
وأنتما جديران بآبائكما العظام .
هنا توقدت فى بهجة
شعلة العلم وحرية الفكر الجميلة (٢) ،
بينما كان التوحش يلقى ظله الكثيف
على العالم المحيط بكم .
كنت لا أزال طفلة ، عندما رنت أسماء هرقل

---

(١) اشارة الى امجاد عائلة « استه » ، لقد استضاف جد الأمير الحاكم لمدينة فرارا ، وهو هرقل فون استه ، الشاعر بوياردو فى قصره ، كما استضاف ابنه هيبوليت الشاعر أريوستو ».

(١) تعطى الأبيات التالية صورة معبرة عن الحياة العقلية والروحية فى عصر النهضة الايطالية ».

وهيبوليت فى أذنى .
كان أبى يكثر من الثناء
على « فرارا » ثناءه على روما وفلورنسه !
طالما اشتقت إليها ، وها أنذا الآن أعيش فيها .
هنا حل بتراركا ضيفا ، وهنا لقى الرعاية ،
وأريوست عثر هنا على نماذجه .
وما من اسم عظيم ذكرته روما
إلا وحل ضيفا على هذا البيت .
وإنها لمزية أن تستضيف العبقرى :
إن أنت قدمت له هدية ،
رد لك الهدية بأحسن منها .
المكان الذى يحل فيه إنسان طيب
تحل فيه البركة ؛ ولا تزال كلمته وعمله
تترددان فى سمع الحفيد بعد مائة عام .

الأميرة : هذا لو كان للحفيد مثل ما لك من إحساس حى .
إنى كثيراً ما أغبطك على هذه النعمة .

ليونورا : التى تستمتعين بها فى هدوء وصفاء
متعة لا يعرفها إلا القليلون .
إن قلبى ليدفعنى إلى الإفصاح
عما أحس به ملء الفؤاد ،

أنت تحسين به أفضل وأعمق وتصمتين .
أنت لا يبهرك مظهر اللحظة العابرة ،
ولا الذكاء يخلبك . عبثا يحاول التملق
أن يلتصق بأذنيك ،
إن فكرك يظل راسخا ، وذوقك سليما .
وحكمك صائبا ، وحظك من العظمة دائما عظيم
فأنت تعرفينها كما تعرفين نفسك .

الأميرة : أولى بك ألا تخلعى على هذا الملق الرفيع
ثوب الصداقة الحميمة

ليونورا : بل الصداقة عادلة ، فهى وحدها
التى تستطيع أن تقدرك حق قدرك .
دعينى كذلك أذكر للحظ والمناسبة
دورهما فى تكوين روحك ،
إنك تملكينها حقا ، وإنك أنت فى النهاية هذه الروح ،
والدنيا كلها تكرمك أنت وشقيقتك(١)
وتعلى قدركما فوق عظيمات النساء فى زمانكما .

الأميرة : كل هذا ، يا ليونورا ، لا يؤثر علىّ كثيراً ،

---

(١) اشارة الى لوكرتسيا شقيقة الأميرة ، وقد كانت زوجة لولى عهد أوربينو ، التى كان عقمها سبب تعاستها « قارن فى ذلك المشهد الثانى من الفصل الثالث » .

كلما تذكرت أننا لا نساوى إلا القليل ،
وأن هذا القليل ندين به لغيرنا .
إن معرفتى باللغات القديمة ، وبأفضل ما خلفه
لنا العالم القديم شيء أدين به لأمى .
ومع ذلك فلم تكن إحدى ابنتيها لتدانيها
فى علمها ولا فى حكمها السليم
ولو حاولت إحدانا أن تقارن نفسها بها ،
لكانت لوكرسيا بذلك أولى منى .
كذلك أستطيع أن أؤكد لك
أنى ما نظرت يوما إلى ما وهبتنى الطبيعة أو آولانيه الحظ
على أنه ملك لى ، أو أنى جديرة به .
إن مما يسعد نفسى ، حين أسمع الأذكياء يتناقشون :
أن أتمكن من فهمهم وتتبع ما يريدون .
قد يكون حكما على رجل من رجال العصر القديم
أو على قيمة أعماله ؛
أو قد يدور الحديث عن علم نمته التجربة
فنفع الإنسان وارتفع به فى آن ،
فى أى وجهة دار حديث هؤلاء النبلاء
وجدتنى أتتبعهم ، لأنى أحب أن أتابع الحديث .

أحب أن أشهد مناظرات الحكماء ،
وأرى كيف يعبث فى رقة بشفاه الخطباء
كلامهم عن القوى الصديقة أو القوى المخيفة
التى تحرك صدر الإنسان ،
وأحب أن أرى كيف تصبح شهوة الأمراء
إلى الحكم والتوسع فى الممتلكات
موضوعا يتناوله المفكرون ،
وكيف تستطيع الفطنة اللطيفة
التى يتعهدها اللبيب بالرعاية الدقيقة
أن تعلمنا بدلا من أن تؤذينا .

ليونورا : وبعد أن تنتهى مثل هذه الأحاديث الجادة ،
يستريح السمع والوجدان
لتذوق قوافى الشاعر ،
الذى يسكب أحب المشاعر
فى النفس بأنغام عذاب .
إن روحك العالى يحيط بمملكة شاسعة ،
أما أنا فأوثر أن أقيم
فى جزيرة الشعر التى تنمو فيها أشجار الغار :

الأميرة : لقد أكدوا لى أن شجرة المر(١)

---

(١) يقال انها الشجرة المقدسة عند الهة الحب فينوس .

هى التى تؤثر أن تنمو فى هذا البلد الجميل
أكثر من غيرها من الأشجار .
وإذا كانت ربات الفن والجمال كثيرات العدد
فيندر أن يبحث الإنسان بينهن عن صاحبة ورفيقة ،
لأن لقاء الشاعر أحب إلى نفسه .
إنه يتجنبنا ، لا بل يبدو كأنه يهرب منا ،
ويبحث عن شىء لا نعرفه
وقد لا يعرفه هو نفسه فى نهاية المطاف .
ما أجمل أن يلقانا عندئذ فى اللحظة المواتية
وأن يتعرف فينا ، والبهجة تغمره ،
على الكنز الذى طالما بحث عنه عبثا فى العالم البعيد .

ليونورا : لا بد لى من قبول دعابتك ،
إنها تصيبنى حقا ، ولكنها لا تصيبنى فى الصميم .
إننى أقدر كل إنسان وأعرف له فضله ،
ولست أحس لتاسو بغير العدل والإنصاف .
إن نظرته لا تكاد تستقر على هذه الأرض ؛
لكن أذنه تسمع ألحان الطبيعة المنسجمة ؛
كل ما يقدمه التاريخ من كنوز ، كل ما تهديه الحياة ،
يتلقاه صدره بالحب والعرفان :
إن وجدانه يجمع كل ما تباعد وتشتت

وإحساسه يهب الحياة لما لا حياة فيه .
كثيراً ما يضفى النبل على ما يبدو لنا وضيعا ،
والشيء الذى نقدره يصبح فى عينيه عدما وهباء .
هذه هى الدائرة الساحرة
التى يتجول فيها هذا الرجل المدهش.
ويغرينا على التجوال معه فيها
ومشاركته الحياة التى يحياها :
إنه يبدو كأنه يقترب منا ، ومع ذلك يظل عنا بعيداً ؛
ويبدو عليه كأنه يتطلع إلينا ،
ومن يدرى أية أشباح غريبة
تتراءى له فى مكاننا .

الأميرة : أراك صورت الشاعر الذى يهيم فى ممالك الأحلام العذبة
فى صورة لطيفة ورقيقة
ومع هذا يبدو لى أن الواقع
يجذبه كذلك إليه بقوة ويسيطر عليه .
هذه الأغانى الجميلة التى نلقاها
معلقة هنا وهناك على الأشجار
أشبه بتفاحات ذهبية ، أو بنجمة المساء .

ألا ترين أنها الثمار العذبة لحب حقيقى ؟

ليونورا : أنا أيضاً أبتهج بهذه الصفحات الحسان .

إن روحه الخصب يمجد صورة واحدة

فى كل أبياته وقصائده .

أحيانا يفتنه سناها المضىء

فيرفعها إلى السماء المزدانة بالنجوم ،

ويسجد أمامها سجود العابد

كما تفعل الملائكة فوق السحاب ،

أو يسترق الخطا ليفتش عنها فى المروج الناعسة ،

ويعقد لها تاجا من كل زهرة تصادفه .

فإذا ابتعدت المعبودة ،

راح يبارك الدرب الذى وطئته قدمها الجميلة .

إنه يتخفى كالبلبل بين أغصان الأيك

ليشدو من قلب موجع

ويملأ المرج والهواء بشكواه العذبة الحنون :

إن أغنيته الساحرة تجذب الآذان ،

وكآبته المسعدة تجبر القلوب على الاستسلام .

الأميرة : وإذا أراد أن يسمى محبوبه

فسوف يسميه ليونورا .

ليونورا : إنه اسمك ، كما هو اسمى .
ولقد كان يسيئنى أن يختار اسما سواه .
يسعدنى أنه يستطيع بهذا المعنى المزدوج
أن يخفى عاطفته نحوك .
كما يرضينى أن يتذكرنى أيضا
كلما نطق بهذا الاسم العذب .
بعيد عن خاطرى الآن ذلك الحب
الذى يريد أن يسيطر على المحبوب
ويملكه بلا شريك ، وتدفعه الغيرة
أن يحميه من كل الأنظار .
إذا كان فى ساعات الإلهام السعيد
ينصرف إلى التأمل فى سمو قدرك
فربما أسعده أن يلتفت
فى بعض الأحيان إلى قدرى الضئيل .
إنه لا يحبنا — واعذرينى أن أقولها لك ! —
بل يجمع ما يحبه من كل الأجواء
ليضعه فى اسم واحد نحمله
ويعبر به عن إحساسه ؛
يخيل إلينا أننا نحب الرجل ،
وما نحب فى الواقع إلا أسمى ؛

ما يمكن أن نصل إليه بالحب .

الأميرة : لقد تعمقت فى هذا العلم يا ليونورا .
إنك تقولين لى أشياء لا تكاد تلمس إلا أذنى
ولكنها لا تنفذ أبدا إلى روحى .

ليونورا : أمثلك يا تلميذة أفلاطون لا تفهم(١)
ما تجرؤ مستجدة على الثرثرة به ؟ !
لابد أننى أخطىء بالغ الخطأ ،
ولكن لا ، إننى لا أخطىء تماما ، وهذا ما أعرفه
جيداً .
إن الحب لم يكن يظهر فى هذه المدرسة النبيلة
فى مظهر الطفل المدلل كدأبه على الدوام :
بل كان الشاب الذى تزوج بسيخة(٢)
وجلس مع الآلهة يدلى بالرأى والمشورة .
إنه لا يضطرب هنا وهناك
نزقا من قلب إلى قلب ،

---

(١) اشارة الى تأثير افلاطون على النهضة الايطالية ، وبخاصة على أكاديمية فلورنسة وفى أعقابها أكاديمية «فرارا» ، وكذلك الى تأثير الفلسفة الافلاطونية على هذه المسرحية وعلى تفكير جوته بوجه عام . ويستطيع القارىء أن يتبين ذلك فى تردد بعض الألفاظ المعروفة فى محاورات افلاطون مثل الايروس (العشق) والجمال والتذكر والاشارة المستمرة الى عالم المثل (راجع المقدمة) .

(٢) أو النفس فى اللغة اليونانية ، وهى فيما تروى الأساطير زوجة ايروس أو الحب .

ولا يعمه فى ضلاله العذب
ليتشبث بالشكل والجمال ،
ولا يكفر عن نشوته العاجلة
بالسخط والاشمئزاز .

الأميرة : ها هو ذا أخى مقبلا !
فلنحاول ألا يفضحنا الحديث
حتى لا يسخر بكلامنا
كما سخر من قبل بملبسنا .

المشهد الثانى

(السابقون – ألفونس)

ألفونس : أبحث عن تاسو ، الذى لا أعثر عليه فى أى مكان ،
وحتى هنا لا أجده معكما .
هل تستطيعان أن تنبآنى بخبر عنه ؟

الأميرة : بالأمس رأيته لحظة ، واليوم لم أره .

ألفونس : إنه يقترف الخطأ القديم ، إذ يسعى إلى الوحدة
لا إلى صحبة الناس .
لئن غفرت له فراره من زحام البشر
وإيثاره الإخلاد إلى روحه ، يسامرها فى حرية وهدوء
فلن أستطيع أن أغفر له
أنه يبتعد بنفسه عن دائرة الأصدقاء .

ليونورا : أيها الأمير . إن لم أكن مخطئة
فسرعان ما تحول لومك إلى ثناء .
لقد رأيته اليوم من بعيد :

كان يحمل فى يده كتابا ولوحا
وكان يكتب ثم يمشى ثم يكتب من جديد .
كلمة عابرة قالها بالأمس لى
أحسست أنها تعلن إتمام عمله .
لم يبق أمامه غير لمسات صغيرة
ويقدم لمروءتك التى طالما أنعمت بها عليه
الهدية التى هى بها جديرة .
ألفونس : مرحبا به إن حملها إلىّ ،
ولينل عفوى إلى أمد طويل .
بقدر ما أبدى من الاهتمام بعمله ،
وبقدر ما تسعد نفسى — ولابد أن تسعد —
بهذا العمل العظيم
فإن قلقى أيضاً يتزايد كل يوم .
إنه لا يفرغ منه ، ولا يستطيع أن يتمه ،
بل يغير فيه بلا انقطاع ، ويتقدم ببطء ،
ثم يتوقف من جديد ، ويخيب فيه الرجاء :
عسير على النفس أن يرى الإنسان
كيف تفلت منه المتعة
التى ظنها قريبة منه .
الأميرة : أما أنا فأثنى على هذا التواضع ،

وأمتدح الحرص الذى يسير به
خطوة فخطوة إلى الهدف .
لم تكن أبياته لتتحد فى مجموع حى
حتى ترضى عنه ربات الفن والجمال
وإن نفسه لا تصبو إلى شىء
كما تصبو إلى أن يكتمل قصيده فى كل منسجم .
إنه لا يريد أن يكوم خرافة على خرافة
قد تشوق وتسحر ، لكنها تخدعك فى آخر الأمر
ويضيع صداها كما تضيع الكلمات المفككة .
دعه يا أختى ! فإن الزمن
ليس مقياسا للعمل الجيد ؛
وإذا كان للأجيال المقبلة أن تستمتع به
فالواجب على الذين يعيشون مع الفنان أن ينسوا أنفسهم .

ألفونس : فلنوحد جهودنا ، يا شقيقتى المحبوبة ،
كما فعلنا فى أغلب الأحيان ، لخيرنا المشترك !
إن تشددت عليه ، فتلطفى أنت معه :
وإن وجدتك مفرطة التسامح ، رحت أتعجله .
ربما وجدناه عندئذ على حين فجأة
وقد أدرك الهدف الذى طالما تمنيناه .
هناك فليدهش الوطن ، وليدهش العالم كله

لروعة العمل الذى أتمه .
سأنال أنا نصيبى من ذلك المجد
وستتفتح له أبواب الحياة .
لا يستطيع الرجل النبيل أن يقتصر
فى ثقافته على مجال محدود .
لا بد أن يؤثر الوطن
ويؤثر العالم كله عليه ،
لابد له أن يتعلم
كيف يحتمل الثناء والهجاء .
سوف يجد نفسه مضطرا
إلى أن يحسن معرفة نفسه وغيره
ولن تستطيع الوحدة أن تهدهده
بأوهامها التى تتملقه .
وإذا كان العدو لا يبقى عليه
فلا يجوز للصديق أن يراعيه ؛
هنالك يجرب الشاب قدرته على الكفاح
فيحس بكيانه ، ويشعر بأنه قد أصبح رجلا .

ليونورا : إذن فسوف تقدم له ، يا أمير ، كل ما تستطيع
كما قدمت له الكثير حتى الآن .
إن الموهبة تتكون فى ظل السكون ،

ودوامة الحياة هى التى تربى الطباع .
ليت وجدانه يتعلم من دروسك كما تعلم فنه !
فلا يعود يتجنب الناس ، ولا يتحول سخطه
فى نهاية الأمر إلى الخوف والحقد !

ألفونس : لا يخاف الناس إلا من يجهلهم ،
ومن يتجنبهم سرعان ما يسىء فهمهم .
ذلك هو حاله ، وكذلك يضطرب الوجدان الحر
ويحبس نفسه مع الأيام فى الأغلال .
كثيراً ما أراه يهتم بنيل رضاى
أكثر مما ينبغى لمثله ؛
ويسىء الظن بعدد كبير من الناس
أعلم تمام العلم أنهم ليسوا أعداءه .
وإذا حدث أن فقد له خطاب
أو انتقل من عنده خادم ليخدم غيره
أو ضاعت إحدى أوراقه
أسرع إلى الحكم بأن وراءها نية سيئة
وخيانة وحيلا ماكرة
تريد أن تدمر مصيره .

الأميرة : فلنحاول ، يا أخى ، ألا ننسى
أن الإنسان لا يمكنه أن يتخلى عن نفسه

وإذا حدث لصديق ورفيق سفر أن جرحت قدمه ،
ألا نفضل فى هذه الحالة أن نمشى على مهل
ونمد له يدنا عن طيب خاطر ؟

ألفونس : الأفضل من ذلك أن نحاول شفاءه ،
ونسرع بتجربة العلاج الذى ينصح به الطبيب ،
ثم نمضى فرحين مع الرفيق المعافى
على الطريق الجديد للحياة المستبشرة .
ومع ذلك فإننى أرجو يا أحبائى
ألا يقال عنى إننى تحملت وزر الطبيب القاسى .
إننى أفعل كل ما أستطيع ،
لكى أبث فى قلبه الثقة والأمان .
وأقدم له أمام الكثيرين
من الدلائل ما يؤكد رضاى .
فإذا جاء إلىّ شاكيا ، أمرت على الفور بالتحقيق ،
كما فعلت أخيرا حينما صور له الخيال
أن اللصوص قد داهموا حجرته .
فإذا لم يتم الكشف عن شىء
شرحت له رأيى فى اتزان .
وكما أن على الإنسان أن يجرب كل شىء ،
فإننى أجرب الصبر مع تاسو ، لأنه يستحقه :

وإنى لأعلم أنكما تؤيدانى .
لقد أتيت بكما إلى الريف
وسأعود إلى المدينة فى المساء .
سوف تريان أنطونيو لبضع لحظات ،
إذ سيحضر من روما ليأخذنى معه .
أمامنا أمور كثيرة لابد من بحثها والانتهاء منها ؛
وقرارات لابد من اتخاذها ، ورسائل لابد من كتابتها ؛
وكل هذا يدعونى للرجوع إلى المدينة :

الأميرة : هل تأذن لنا بمصاحبتك ؟

ألفونس : بل ابقيا فى بلرجواردو ، وسافرا معا إلى كونساندولى ! (١)
واستمتعا بالأيام الجميلة كما يحلو لكما .

الأميرة : ألا يمكنك حقا أن تبقى معنا ؟
وتدبر هنا شئونك كما تدبرها فى المدينة ؟

ليونورا : وهل تحرمنا على الفور من أنطونيو
الذى ننتظر منه أن يروى الكثير عما شاهده فى روما ؟

ألفونس : مستحيل ما تطلبان يا صغيرتىَّ ،
ومع ذلك فسأعود معه ، بأسرع ما نستطيع :
وعندئذ تستمعان إلى حكاياته ، وتساعدانى على مكافأته

---

(١) أحد قصور المتعة والترف بالقرب من مدينة فرارا .

وهو الذى يبذل فى خدمتى الكثير .

فإذا فرغنا من الحديث ،

فليأت الضيوف كجماعات النحل

ليشيعوا الفرح فى حدائقنا ،

ولألق تحت الظلال الرطبة

الجمال الذى أفتش عنه ويحن قلبى إليه .

ليونورا : سنحاول أن ننظر من خلال الأصابع (١)

ألفونس : وسترين إلى أى حد يذهب بى التسامح .

الأميرة : (وهى تستدير ناحية المسرح) :

أرى تاسو يتقدم نحونا من مدة طويلة

إنه يسير بخطى بطيئة ، ويقف كالمتردد

فجأة بلا حراك ،

ثم يعود فيحث السير نحونا ،

وها هو ذا يتوقف من جديد .

ألفونس : حين تريانه يتأمل ويبدع :

فلا تزعجا أحلامه، بل اتركاه يتجول كما يشاء .

ليونورا : لا ، لقد رآنا ، وها هو ذا قادم نحونا .

---

(١) أى سنحاول أن نغمض أعيننا !

المشهد الثالث

(السابقون — تاسو)

تاسو : (ومعه كتاب مجلد بالرق) :

ها أنا ذا أتقدم فى بطء ، لأعطيك كتابا
وما زلت أتردد فى تسليمه إليك .
أعلم تمام العلم أنه لا يزال ناقصا
وإن بدا عليه أنه تم وانتهى .
إذا كنت قد أحسست بالهم
لأننى أهديه إليك قبل إتمامه
فقد استولى على هم جديد
من أن أبدو شديد الخوف
أو أظهر فى مظهر الجاحد .
وكما يستطيع امرؤ أن يقول : ها أنذا !
فيفرح به الأصدقاء ويسامحونه
كذلك لا أملك أنا أيضاً إلا أن أقول : خذه من يدى !
(يقدم له الكتاب)

ألفونس : أنت تفاجئنى بهديتك
وتجعل من هذا اليوم الجميل عيدا .
ها أنا أحمل الكتاب أخيراً بين يدى
وأعده على نحو من الأنحاء كتابى !
طالما تمنيت أن تحزم أمرك
وتقول فى النهاية : هاك الكتاب ! لقد اكتفيت !

تاسو : إن رضيتم به ، فقد تحقق غرضى ،
لأنه كتابكم ، من كل ناحية .
لو أننى فكرت فى الجهد الذى بذلته فيه ،
ورأيت الخطوط التى رسمتها ريشتى ،
لقلت لنفسى : إن هذا الكتاب كتابى .
ولكننى كلما أمعنت النظر ،
وبحثت عما يعطى هذا القصيد
قيمته العميقة ومنزلته العالية
عرفت أننى لم أستمده إلا منكم .
إن كانت الطبيعة الحنون قد وهبتنى
نعمة الشعر الرائعة ،
فقد شاء القدر العنيد
أن يبطش بى ببطشه القاسى ؛
وإن كان العالم بكل ما فيه من جمال

قد سحر عيون الصبي الصغير
فسرعان ما كدر روحه الشاب
ما حاق بأبويه الحبيبين
من بؤس لم يستحقاه (١) .
كنت كلما تفتحت شفتاى للغناء
انسكبت منهما الأغنية الحزينة ،
ورحت أصاحب بالأنغام الهامسة
آلام الأب وعذاب الأم .
أنت وحدك الذى خلصتنى من هذه الحياة الخانقة
ورفعتنى إلى سماء الحرية الجميلة
أنت الذى أزحت الهموم عن جبهتى
وحررت روحى فرفرف جناحاها بالغناء ؛
وسواء ما كان الجزاء الذى ينتظر كتابى
فإننى أدين لك به ، لأنه منك وإليك .

ألفونس : تستحق الحمد مرتين ،
فأنت تكرم نفسك فى تواضع
وتكرمنا معك .

---

(١) اشارة الى مالقيه أبوه برناردو من قسوة القدر . فقد كان شاعر البلاط عند أحد النبلاء فى نابولى ، ثم اهين وطرد من البلاد ، واضطرت زوجته الى البقاء فى مدينة « سورنت » لتعيش فى بؤس مع طفليها توركواتو (وهو شاعرنا تاسو) وشقيقته كورنيليا .

تاسو : آه لو استطعت أن أعبر لك
عن إحساسى الخالص بأن ما أحمله لك
إنما يأتى منك أنت !

ذلك الشاب الذى لم يكن قد جرب شيئا ،
أكان فى مقدوره أن يستمد هذه القصيدة من نفسه ؟
هل كان فى استطاعته أن يدرك
كيف تدبر الحرب الخاطفة تدبيرا حكيما ؟

فنون البراعة فى السلاح ، التى يبديها الأبطال
فى اليوم الموعود
ألمعية القائد وشجاعة الفرسان ،
وكيف يتنافس الدهاء مع اليقظة فى النزال ،
ألم تكن أنت ، أيها الأمير الحكيم الشجاع ،
من بث فى نفسى هذا كله ، وكأنك شيطانى الملهم
الذى يحلو له أن يكشف عن طبيعته السامية
فى جسد إنسان فان ؟

الأميرة : تمتع الآن إذن بالعمل الذى أسعدتنابه !

ألفونس : إبتهج بحفاوة الطيبين !

ليونورا : وافرح بالمجد الذى لا حد له !

تاسو : هذه اللحظة تكفينى .

ما فكرت إلا فيكم ، حين تأملت وكتبت :
رضاكم كان أقصى مناى ،
وإسعادكم كان أسمى أهدافى .
من لا يرى العالم بعيون أصدقائه
لا يستحق أن يلتفت العالم إليه .
هنا وطنى ، وهنا دائرة الصحاب
الذين ترتاح نفسى إلى المقام بينهم .
هنا تصغى روحى ، وتلتقط كل إشارة ،
هنا تتكلم التجربة ، والمعرفة ، والذوق ،
أجل ، وهنا يتجمع الحاضر والمستقبل أمام ناظرى .
الجماهير تضل الفنان وتملؤه ذعرا :
أما من يشبهكم ، فهو وحده الذى يفهم ويحس ،
وهو وحده الذى يحق له أن يحكم ويثيب !

ألفونس : إذا كنا نمثل العالم فى الحاضر والمستقبل
فلا يخلق بنا أن نأخذ بغير أن نعطى .
العلامة الجميلة ، التى تشرف الشاعر
والتى يراها البطل نفسه — وهو الذى يحتاج إليها
على الدوام — تتوج رأسه فلا يشعر بالحسد ،
أراها هنا تزين جبهة سلفك العظيم .
(مشيراً إلى تمثال فرجيل النصفى)

أكانت هى الصدفة ، أم هى يد الجان
التى عقدتها وجاءت بها ؟ إنى لا أراها هنا عبثا .
أسمع فرجيل يقول : ما الداعى لتكريم الموتى ؟
لقد لقوا فى الحياة جزاءهم ، وأخذوا نصيبهم من السعادة ؛
إن كنتم حقاً تعجبون بنا وتبغون أن تكرمونا
فاعطوا الأحياء كذلك نصيبهم .
يكفى ما وضعوه على تماثلى المرمرى من أكاليل —
أما الغصن الأخضر فقد خلق للحياة .
(ألفونس يشير إلى شقيقته فتنزع الإكليل من فوق تمثال فرجيل وتقترب من تاسو الذى يتراجع إلى الوراء)

ليونورا : أترفض ؟ أنظر أى يد تمد إليك
التاج الجميل الذى لا يذبل !

تاسو : دعونى أتردد ! فلست أدرى
كيف يمكننى أن أعيش بعد هذه اللحظة .

الفونس : عش لتستمتع بالهدية الرائعة
التى أفزعتك فى اللحظة الأولى أن تنالها .

الأميرة : (وهى ترفع الإكليل إلى أعلى) :
أتح لى السعادة النادرة يا تاسو ،

لأعبر لك فى صمت ، عما يدور فى فكرى :

تاسو : هذا العبء الجميل من يديك الغاليتين
دعنى أتلقاه راكعاً على رأسى الضعيف .
(يركع على قدميه . الأميرة تضع التاج على رأسه)

ليونورا : (مصفقة) ليعش من يتلقى الإكليل لأول مرة !
كم يزين رأس الرجل المتواضع !
(تاسو ينهض واقفا .)

ألفونس : ليس إلا رمزا لذلك التاج
الذى سيجلل جبهتك فى «الكابيتول» .

الأميرة : هناك ستحييك الهتافات العالية ؛
أما هنا فتكافئك الصداقة بشفاه هامسة .

تاسو : إنزعوه من على جبهتى ، أبعدوه !
انه يلهب خصلات شعرى !
كمثل شعاع الشمس الحارق الذى يقع على رأسى
أحس به يبدد قدرتى على التفكير .
وأشعر بحرارة الحمى تعصف بدمى .
أعذرونى . إنه كثير على !

ليونورا : بل إن هذا الغصن يحمى رأس شاعر
يسير فى بلاد المجد الدافئة
ويرطب جبهته .

تاسو : لست جديرا بهذا الترطيب
الذى لا يخلق إلا بجباه الأبطال .
أيتها الآلهة ! إرفعيه بين السحب
حتى يظل عاليا خفاقاً لا يدركه أحد !
واجعلى حياتى سعيا خالدا نحو هذا الهدف !

ألفونس : من نال متع الحياة الصافية فى سن الشباب
تعلم فى ربيع العمر كيف يقدر قيمتها العالية ؛
ومن ذاق طعمها وهو فى عنفوان صباه
لم يشعر بالحرمان مما امتلكه ذات يوم ؛
ومن ملك فقد تحصن .

تاسو : ومن أراد أن يتحصن ،
وجب أن يحس فى قلبه بالقوة التى لا تخونه أبداً .
آه ! إنها تخوننى الآن !
هذه القوة المفطورة تتخلى عنى
وهى التى علمتنى كيف أصمد للقدر
وأواجه الظلم فى كبرياء .
هل أذاب الفرح قوتى ، هل بددت النشوة النخاع
من أعضائى ؟
ركبتاى تسقطان بى ! ها أنت ذى أيتها الأميرة
ترينى راكعاً أمامك للمرة الثانية !

استجيبي لدعائي : إنزعي هذا التاج عن رأسي !
حتى أحس كأني أستيقظ من حلم جميل
لأبدأ حياة منتعشة جديدة .

الأميرة : ما دمت قادرا على حمل الموهبة التي أسبغتها عليك الآلهة
بقلب متواضع رضي ،
فتعلم كذلك كيف تحمل هذه الفروع الخضراء
فهي أجمل ما نستطيع أن نهديه إليك .
من يلامس هذا الشرف رأسه مرة ،
فسوف يرف حول جبهته إلى أبد الآبدين .

تاسو : إذن فاتركيني أغادر خجلا هذا المكان !
دعيني أخفي سعادتي في الغابة العميقة ،
كما تعودت أن أخفي فيها أحزاني .
أريد أن أتجول هناك وحيداً ،
فلا تذكرني عين بالسعادة التي لا أستحقها .
فاذا رأيت صورة رجل يحمل تاجه الرائع
منعكسة على مرآة نبع صافية
يتنكر في سكون بين الأشجار والصخور
وتسقط عليه ظلال السماء الزرقاء
فسوف يبدو لي كأني أرى الإليزيوم (١)

(١) هو في الأساطير الافريقية جنة السعداء ، ومقام المنعمين الخالدين .

منعكساً على صفحة المياه الساحرة .
هناك أتأمل فى هدوء وأسأل نفسى :
ظل من هذا ؟ أهو الشاب الذى عاش قديماً ؟
أهو الذى يحمل تاجا رائعا على رأسه ؟
من الذى يقول لى اسمه ؟ من يحكى أمجاده ؟
ويطول بى الانتظار فأتمنى
لو أن شابا آخر جاء ، وبعده ثان
وجمع بينهم حديث ودود !
آه لو أرى الأبطال ، لو أرى شعراء العصر القديم
مجتمعين حول هذا النبع !
آه لو استطعت أن أراهم هنا
متحدين إلى الأبد ، كما كانوا فى عالم الأحياء .
كذلك تؤلف قوة المغنطيس بين الحديد والحديد ،
كما يؤلف النزوع الواحد بين البطل والشاعر .
لقد نسى هوميروس نفسه ، ووهب حياته كلها
فى تأمل رجلين اثنين ،
والأسكندر لن يسعد فى الإليزيوم
حتى يلتقى بأخيل وهوميروس .
آه لو استطعت أن أكون معهم

لأرى كيف تتحد أعظم النفوس !

ليونورا : أفق ! أفق ! لا تحملنا على الإحساس
بأنك تنكر الحاضر أو تتجاهله .

تاسو : بل إن الحاضر هو الذى يسمو بى ،
وإن بدوت فى الظاهر غائبا عن البال ،
فإن روحى فى أوج النشوة .

الأميرة : تسعد نفسى حين أسمعك تحادث الأرواح ،
بصوت يفيض إنسانية ، وأنصت إليك فى سرور .
(تتقدم إحدى الوصيفات من الأمير وتهمس شيئاً
فى أذنه)

ألفونس : لقد حضر ! اختار اللحظة المناسبة !
أنطونيو ! ــ أحضريه إلى هنا ! ــ ولكن هاهو قادم !

المشهد الرابع

(السابقون — أنطونيو)

ألفونس : مرحباً بك ! يا من جئتنا
بشخصك وبالبشارة السعيدة .

الأميرة : تقبل تحيتنا !

أنطونيو : لا أكاد أقوى على التعبير عما يغمرنى من فرح
وأنا أجد نفسى بينكم من جديد .
كل ما حرمته وطال حرمانى
أراه الآن مرة أخرى أمامكم .
يبدو عليكم الرضا بما فعلت وما حققت يداى ؛
وهكذا أرانى وقد كوفئت على ما لقيت من متاعب ،
على أيام ثابرت فيها فارغ الصبر ،
وأيام أضعتها عن قصد وتدبير .
الآن قد حصلنا على ما نتمناه
ولم يعد هناك محل للنزاع .

ليونورا : أنا أيضاً أحييك ، وإن كان يحزننى
أنك لم تأت إلا فى اليوم الذى ينبغى على أن أسافر فيه .

أنطونيو : ألكى لا تتم سعادتى
تسلبينها أجمل نصيب ؟
تاسو : وأنا كذلك أحييك ! وأرجو أن أجد السعادة
بالقرب من الرجل المجرب الحكيم .
أنطونيو : ستجد منى الصدق والإخلاص
إذا استطعت أن تلقى من دنياك نظرة على دنياى .
ألفونس : على الرغم من أنك أخبرتنى فى رسالتك
بما بذلت من جهود وما حققت من نجاح
فما زلت أريد أن أسألك
عن الوسائل التى أنجزت بها مهمتك .
هناك على تلك الأرض العجيبة
يتحتم على الإنسان أن يحسب خطاه
إذا أراد أن يصل إلى الهدف المقصود .
ومن لا يفكر إلا فى مصلحة سيده
يجد نفسه فى روما فى موقف عصيب :
فروما تريد أن تأخذ كل شيء ، ولا تعطى شيئا ،
وإذا قصدها الإنسان لينال شيئا
لم يفز منها بغير ما جاء به معه ،
والسعيد من لا يخرج منها فارغ اليدين .
أنطونيو : أيها الأمير ! لم يكن سلوكى ولا براعتى

هما اللذان أعانانى على تحقيق مشيئتك .
فأى إنسان مهما كانت فطنته ،
لا يجد فى الفاتيكان من يتفوق عليه ؟
اتفقت ظروف كثيرة
إستطعت أن أستغلها لصالحنا .
إن «جريجور» (١) يقدرك ، ويحييك ، ويباركك .
هذا الشيخ الهرم ، أجدر من يحمل عبء التاج على رأسه ،
يطيب له أن يتذكر ذلك اليوم البعيد
عندما عانقك وضمك إلى صدره .
هذا الرجل ، الذى يفهم كيف يميز بين الرجال ،
يعرفك جيدا ويضعك فى منزلة عالية !
ولذلك فقد دفعه حبه لك ، على أن يفعل لك الكثير .

ألفونس : يسعدنى أن يحسن الظن بى
على قدر إخلاص نيته .
غير أنك تعلم تمام العلم
أن من يقف فى الفاتيكان وينظر من عل إلى الممالك
يراها ضئيلة تحت قدميه ،
فما بالك بمن ينظر إلى الأمراء والبشر ؟

---

(١) المقصود هو البابا جريجور الثالث عشر .

صارحنى إذن ، ما الذى أعانك فى مهمتك ؟

أنطونيو : حسناً ! ما دمت تريد ذلك ، فهى حكمة البابا العالية .
إنه يرى الصغير صغيراً ، والعظيم عظيما .
ولكى يحكم العالم يحلو له
أن يتساهل مع جيرانه عن طيب خاطر .
إنه يقدر الأرض التى يتركها لك
كما يقدر صداقتك حق التقدير .
إنه يريد أن تظل إيطاليا هادئة ،
وأن يكون جيرانه أصدقاءه
ويسود السلام على حدوده
حتى يستطيع المسيحيون أن يكونوا قوة
تتحد تحت قيادته ، لتقضى على الأتراك والملحدين .

الأميرة : هل هناك أحد يعرف الرجال المقربين إليه
والذين يؤثرهم بالمودة والألفة ؟

أنطونيو : الرجل المجرب وحده هو الذى يملك سمعه ، والنشيط
هو الذى ينال ثقته ورضاه .
الدولة التى خدمها وهو شاب
يحكمها الآن ويؤثر على البلاط
الذى رآه وعرفه وكثيراً ما ساس أموره
عندما كان رسولا إليه منذ سنوات .

إن نظرته النافذة تحيط بالعالم كله
كما تعرف مصلحة بلاده .
من رآه وهو يدبر شئون الحكم أثنى عليه ،
وأسعده أن تكشف الأيام
عما أعده فى صبر وصمت ، حتى حققه .
ما من مشهد فى العالم أجمل
من أن يرى الإنسان أميراً يحكم عن بصيرة
ومملكة يطيع فيها كل فرد وهو فخور ،
ويؤمن بأنه لا يخدم إلا نفسه ،
لأنه لا يؤمر إلا بالحق والإنصاف .

ليونورا : ما أشد شوقى لمعرفة هذا العالم عن قرب !

ألفونس : وللمشاركة بالفعل فيه بغير جدال ؟
فمثل ليونورا لن تقنع بالتأمل من بعيد .
كم يكون جميلا يا صديقتى فى بعض الأحيان
أن نشارك بأيدينا الرقيقة فى لعبة الصراع
الدائرة بين الدول . أليس كذلك ؟

ليونورا : (لألفونس) : إنك تريد أن تثيرنى ، ولكن بغير طائل .

ألفونس : ألست مدينا لك بهذا من قديم الأيام ؟

ليونورا : لا بأس ، ولأبق أنا اليوم مدينة لك !
معذرة ، ولا تقاطع أسئلتى .

(لأنطونيو) هل فعل الكثير من أجل أبويه ؟

أنطونيو : لم يفعل أكثر مما تقضى به التقاليد .

إن الحاكم الذى لا يعرف كيف يرعى شئون أهله
يلومه الشعب نفسه على ذلك
إن جريجور يعرف كيف ينفع أقاربه ،
الذين خدموا الدولة كرجال أشداء ،
فى هدوء واعتدال ،
وبذلك يؤدى واجبين متلازمين
بلفتة واحدة .

تاسو : هل تسعد المعرفة أيضا ، ويسعد الفن برعايته ؟
وهل يحذو فى ذلك حذو الأمراء العظام فى قديم العصور ؟

أنطونيو : إنه يكرم المعرفة بقدر ما تفيد فى تدبير شئون الحكم ،
وتعلم الإنسان أن يتعرف الشعوب ؛
ويقدر الفن ، بقدر ما يشيع الزينة والجمال
ويضفى البهاء والروعة على روما ،
ويجعل من قصوره ومعابده معجزات على الأرض .
لأنه لا يسمح لشىء حوله أن يعيش فى اللهو والفراغ !
فلا بد لمن يريد أن يثبت قيمته من أن يعمل ويخدم .

ألفونس وهل تعتقد أننا نستطيع عن قريب أن ننهى قضيتنا ،

قبل أن يخلقوا لنا المصاعب هنا وهناك ؟

أنطونيو : إن لم يستطع إمضاؤك
أو بعض الخطابات التى تحررها بيدك
أن تفض هذا النزاع
فلا بد أن أكون مخطئاً تمام الخطأ .

آلفونس فلأحي إذن هذه الأيام التى أحياها
ولتكن أيام سعادة وفوز .
أرى حدودى قد اتسعت وأمنت .
أديت هذا العمل بغير أن تجرد سيفاً ،
واستحققت عليه تاج المدينة .
أريد من سيداتنا أن يعقدنه من فروع البلوط الناضرة
وأن يضعنه على جبهتك مع إشراقة الفجر الجميل .
تاسو أيضا سخا علينا فى العطاء
لقد فتح لنا بيت المقدس ، وأخجل بذلك المسيحيين ،
وأدرك الهدف النائى والمقصد الرفيع
بالجهد الشاق والحماس البهيج
وها أنت ذا ترى التاج يزين رأسه .

أنطونيو : أنت بهذا تكشف لى اللغز .
فقد عجبت إذ رأيت رأسين متوجين
وأنا فى طريقى إلى هذا المكان .

تاسو : إن كنت ترى سعادتى أمام عينيك
فكم أتمنى لو استطعت أن ترى
بالنظرة نفسها وجدانى الخجلان .

أنطونيو : كنت أعرف دائماً أن ألفونس
عندما يكافىء يجاوز كل الحدود
وأنت الآن تتعلم بدورك
ما يعلمه المقربون منه .

الأميرة : ستعرف عندما تطلع على العمل الذى أنجزه
أننا كنا معتدلين منصفين .
لسنا هنا إلا أول الشهود
على المجد الذى لن يبخل به العالم عليه ،
والذى سيغدقه عليه المستقبل عشرات الأضعاف .

أنطونيو : إن رعايتكم له هى التى تضمن له المجد
ومن ذا يخامره الشك حين تكافئون ؟
ولكن خبرينى ، من الذى وضع هذا الإكليل على
رأس أريوست ؟

ليونورا : هذه اليد .

أنطونيو : وقد أحسنت صنعاً فهو يزينه
بأجمل مما كان للغار نفسه أن يفعل .
كالطبيعة التى تدثر صدرها الغنى العميق

بثوب أخضر بهيج ،
كذلك يدثر برداء الخرافة المتألق
كل ما يجعل الإنسان محبوباً وكريما .
القناعة ، والتجربة ، والفهم ،
قوة العقل ، والذوق ، والحس الصافى
بالخير الحق ، تبدو فى أغانيه كأنها رموز
ومع ذلك تسرى فيها حياة شخصية
وكأنها تستريح فى ظلال الأشجار المزدهرة ،
تغطيها ثلوج الزهرات الخفيفة الحمل ، وتتوجها
الورود ،
بينما تحيط بها آلهة الحب العابثة ،
وتلعب لعبها الساحر كالأطفال .
نبع الفيض يهمس بجانبها
ويرينا أسماكا عجيبة الألوان
الهواء يزدحم بالطيور النادرة
والأيكة والمرعى بالقطعان الغريبة
الخبث يتصنت بين الأشجار ، ويتكشف ثم يتخفى ،
والحكمة التى يرن صوتها فى سحابة ذهبية
ترسل عباراتها السامية من حين إلى حين ،
بينما يبدو وكأن الجنون يهذى فى وحشية

على قيثارة محكمة الأوتار
ويلتزم مع ذلك بإيقاع الأنغام .
من أحس أنه جدير بأن يضع نفسه بجانب هذا الرجل
فقد استحق على جسارته هذا الإكليل ،
أعذروني إذا كنت أحس بالحماس يغمرني ،
وأندفع كالملهم النشوان فلا أفكر في الزمان أو المكان
ولا أتدبر ما أقول ؛
فهؤلاء الشعراء ، وهذه الأكاليل ،
وهذه الثياب البديعة على نسائنا الجميلات ،
تنسيني نفسي وتنقلني إلى عالم غريب .

الأميرة : من عرف كيف يقدر فضلا واحدا
لم يعجزه أن يقدر فضلا آخر .
سيكون عليك أن تكشف لنا في قصائد تاسو
عما نشعر به وتفهمه أنت وحدك .

ألفونس : تعال يا أنطونيو ! ما زالت هناك أشياء كثيرة أحب
أن أسألك عنها .
بعدها تستطيع أن تفرغ للنساء إلى أن تغرب الشمس .
تعال ! الوداع .
(أنطونيو يتبع الأمير ، وتاسو يتبع السيدتين)

الفصل الثانى

قاعة

المشهد الأول

(الأميرة — تاسو)

تاسو : خطواتى تتبعك مترددة يا أميرتى ،
وأفكار بلا قيد ولا نظام تضطرب فى روحى .
يبدو لى كأنى أرى الوحدة تشير إلى
وتهمس قائلة فى صوت حنون :
تعال أخلصك من هذه الشكوك التى تثور فى صدرك .
غير أنى حين أنظر إليك ،
وتسمع أذنى المتلهفة كلمة واحدة من شفتيك
يتجلى لى نهار جديد
وتتكسر عنى الأغلال .
أريد أن أعترف لك
بأن الرجل الذى جاءنا على غير انتظار

قد أيقظني بلا رحمة من حلم جميل ؛
إن وجوده وكلماته قد صدمتني على نحو غريب ،
حتى لأشعر كأن نفسين تتصارعان فى كيانى ،
وأننى بدأت أرتبك وأتنازع مع ذاتى .

الأميرة : من المستحيل على صديق قديم
طالت غيبته وعاش حياة غريبة
أن يعود فى نفس اللحظة التى يرانا فيها
نفس الصديق الذى عرفناه من قبل .
إنه فى صميم قلبه لم يزل كما كان ؛
إنتظر حتى نقضى معه أياماً قليلة ،
وسوف تتناغم الأوتار هنا وهناك ،
ويؤلف بينها الانسجام السعيد .
فاذا تم له كذلك أن يتعرف
على العمل الذى حققته فى هذه الفترة
فلن يتردد فى أن يضعك إلى جانب الشاعر
الذى يعارضك به الآن ويصوره فى صورة العملاق .

تاسو : آه يا أميرتى ! إن ثناءه على أريوست
لم يسىء إلى بل أسعدنى .
ذلك أن عزاءنا نحن الشعراء
أن نجد الناس يمتدحون الرجل

الذى نعده المثل العظيم .
هنالك يهمس الواحد منا لنفسه فى الخفاء :
إن استطعت أن تدرك نصيباً من قيمته
فلا شك أنك ستنال نصيباً من مجده .
لا . إن ما أثار قلبى من الأعماق ،
ولا يزال يملأ نفسى كلها ،
هى أشباح ذلك العالم المهول ،
التى تلتف حول رجل عظيم بالغ الذكاء
يرسم لها المسار كأنه نصف إله .
لقد استمعت فى لهفة واستمتاع
إلى الكلمات الرصينة تخرج من فم الرجل الحكيم ،
ولكن آه ! لقد كنت كلما أمعنت فى الانتباه
أسقط شيئاً فشيئاً فى نظر نفسى ،
حتى خشيت أن أتلاشى كالصدى على الصخور ،
وأن أضيع كالرنين أو كالعدم وأفقد ذاتى .
الأميرة : وكنت قبل ذلك بقليل تحس إحساساً صافياً
بأن البطل والشاعر متلازمان ،
وأن البطل والشاعر يبحث أحدهما عن الآخر
ومن المستحيل أن يحسد أحدهما صاحبه .
حقاً إن الفعل الذى تحتفل به الأغنية

شيء رائع وعظيم ، غير أنه لا يقل عن ذلك جمالا
أن تحمل الأغنية للأجيال المقبلة
روعة الأعمال الكبار .
حاول وأنت تعيش فى مملكة صغيرة ترعاك
أن تقنع بالنظر إلى العالم المضطرب
نظرة المتأمل الذى يقف على الشاطىء .

تاسو : ألم أفتح عينى هنا لأول مرة فى دهشة
لأرى كيف يكافئون الرجل الشجاع مكافأة رائعة ؟
أتيت إلى هنا كصبي غرير
فى وقت كانت فيه الاحتفالات والأعياد
تكاد تجعل من « فرارا » مركز الشرف والأمجاد .
يا لذلك المشهد البديع ! حول الميدان المتسع ،
الذى ستدور عليه ألعاب الفروسية الرائعة ،
كانت هناك دائرة يصعب أن تشرق الشمس على
مثلها مرتين .
هنالك أجمل النساء كن يجلسن متراصات
وكان يجلس أفضل الرجال فى هذا الزمان .
راحت النظرة المدهوشة تستعرض الجمع النبيل
وهتفت الأصوات : « هؤلاء جميعاً أرسلهم الوطن
إلى هنا ، أرسلتهم الأرض الواحدة ، الضيقة ،

التى تحيط بها البحار » .
إنهم جميعاً يؤلفون أروع محكمة
فصلت فى الشرف ، والحق ، والفضيلة .
إن تأملتهم واحداً واحداً لم تجد
من يحتاج أن يخجل من جاره !
ثم فتحت الحواجز ، فدقت أرجل الخيول
ولمعت الخوذات والدروع
واندفع الفرسان ، ودوت الطبول
وتطاير الشرر وصلصلت السهام
حين ارتطمت بالخوذات والدروع
وثارت دوامات الغبار
فغطت مجد المنتصر وعار المهزوم .
آه ! دعينى أسدل ستاراً على هذا المشهد الناصع
حتى لا أشعر فى هذه اللحظة الجميلة
بفداحة الإحساس بهوانى .

الأميرة : إن كانت تلك الجماعة النبيلة وتلك الأمجاد ،
قد أشعلت فى نفسك لهيب الطموح والاجتهاد ،
فقد كان فى استطاعتى ، يا صديقى الشاب ،
أن أعلمك فى ذلك الحين درساً صامتاً فى الصبر والاحتمال .

هذه الأعياد التى تثنى عليها ،
والتى لم تنقطع مئات الألسنة فى ذلك الحين عن امتداحها لى ،
لم أرها قط . كنت أرقد فى مكان منعزل ،
حيث تضيع آخر أصداء الفرح البعيد دون أن يعكرها شىء ،
أعانى آلام المرض وتضنينى الأفكار الحزينة .
كان الموت يتمثل أمامى ناشراً جناحيه ،
ويخفى العالم الجديد إلى الأبد عن عينى .
ثم بدأ يبتعد فى بطء ، لأرى ألوان الحياة الزاهية ،
شاحبة لا تزال وإن تكن رقيقة
وكأنى أراها من خلال قناع .
رأيت الصور الحية تتحرك ناعمة من جديد .
كنت أغادر غرفة المرض لأول مرة ، مستندة على وصيفاتى ،
حين أقبلت لوكريتسيا فى بهجة الشباب
وهى تسحبك من يدك .
كنت فى حياتى الجديدة
أول وجه مجهول يلاقينى .
هنالك رجوت الكثير من أجلك ومن أجلى ،

وإلى هذه اللحظة لم يخب الرجاء .

تاسو : وأنا ، أنا الذى أعيانى الزحام المختلط ،
وأعشى عينى بريق المجد ، واضطربت فى نفسى الأحاسيس ،
كنت أسير صامتاً إلى جانب شقيقتك فى طرقات القصر الهادئة ،
حتى دخلت الحجرة التى طلعت علينا فيها ، مستندة على وصيفاتك —
يا لها من لحظة فى حياتى ! آه فلتغفرى لى
فكما ينعم القرب من الآلهة بالشفاء
على المفتون بالوهم والخيال ،
كذلك شفتنى نظرة فى عينيك
من كل أوهام الخيال وزيف الطموح والاشتهاء .
من قبل كانت أشواقى الغريرة
موزعة بين آلاف الأشياء
فثبت خجلا إلى نفسى
وتعلمت أن أحب ما يستحق الحب .
كذلك يبحث الإنسان عبثاً عن لؤلؤة
فى رمال البحر المترامية ، بينما هى مستكنة فى جوف محارة .

الأميرة : بدأنا نعيش أياماً سعيدة ،
ولولا أن أمير أوربينو حرمنا من شقيقتى
لقضينا السنوات فى سعادة حلوة صافية .
وها نحن وا أسفاه نفتقد الكثير ؛
نفتقد الروح المرح ، والقلب الممتلىء بالشباب والحياة ،
والخيال الخصب ، بعد أن ذهبت عنا السيدة الحبيبة .

تاسو : أعرف أن إنساناً لم يستطع
أن يعوضك عن تلك البهجة الصافية
منذ ذلك اليوم الذى رحلت فيه .
كم مزق هذا فؤادى !
كم شكوت للغابة الصامتة ما أقاسيه من أجلك !
كم هتفت صائحاً : هل من حق هذه الأخت وحدها
أن تشغل قلبها الغالى ؟
أما من قلب آخر يستحق أن تثق فيه ؟
أما من روح أخرى تشعر معها بالانسجام ؟
هل انطفأ العقل وخمد الخيال ؟
ومهما يكن حظ هذه السيدة من الكمال ،
فهل كانت هى وحدها كل شىء ؟
غفرانك يا أميرتى ! فقد كنت أحياناً أفكر فى نفسى
وأتمنى أن أصبح شيئاً بالنسبة إليك .

شيئاً قليلا بالطبع ، ولكنه شىء أحققه بالفعل لا بالكلام
وتبين حياتى كيف وهب لك قلبى نفسه فى صمت .
غير أننى لم أنجح فى هذا ،
فكثيراً ما دفعنى الخطأ إلى ارتكاب ما يؤلمك
وكثيراً ما أهنت الرجل الذى أوليته رعايتك
وأشعت بغبائى التعقيد والاضطراب
فيما أردت له التبسيط والنظام ،
وفى كل لحظة حاولت أن أقترب فيها منك
أحسست بأننى أبتعد عنك وأزداد ابتعادا .

الأميرة : أنا ما أسأت فهم نيتك أبداً يا تاسو ،
بل أعلم كيف تسعى إلى إيذاء نفسك بنفسك .
وبينما عرفت أختى كيف تحيا مع الناس وتأخذهم على علاتهم ،
فما زلت فى حاجة إلى سنين عديدة ، حتى تفتح قلبك لصديق واحد .

تاسو : عاتبينى كما تشائين . ولكن خبرينى
أين هو الرجل ، أين هى المرأة
التى أجرؤ على أن أفتح لها صدرى
وأتكلم معها فى حرية كما أفعل معك ؟

الأميرة : عليك أن تضع ثقتك فى أخى .

تاسو : إنه أميرى ! — ولكن لا تظنى
أن الرغبة العارمة فى الحرية تنسينى نفسى .
إن الإنسان لم يولد ليكون حراً ،
وما من شىء يمكن أن يسعد النبيل
كما يسعده أن يخدم الأمير الذى يجله .
إن ألفونس سيدى ، وأنا أشعر
بكل ما فى هذه الكلمة الكبيرة من معنى .
إن على أن أتعلم كيف أسكت حين يتكلم
وكيف أطيع حين يأمر ،
مهما عارضه عقلى وقلبى .

الأميرة : إن أخى يختلف عن ذلك تماماً .
ولكن ما دام أنطونيو قد رجع إلينا
فستجد فيه الصديق العاقل الذى تطمئن إليه .

تاسو : كنت أطمع فى هذا من قبل ، أما الآن فقد كدت أيأس .
كم كنت أرجو أن أتعلم من صحبته ،
وأنتفع بمشورته فى ألف شىء !
أستطيع أن أقول إن لديه كل ما ينقصنى .
ومع ذلك فإن كانت الآلهة كلها قد أقبلت
لتقدم الهدايا إلى مهده

فقد تخلفت ، ويا للأسف ، ربات المحبة ،
ومن أعوزته عطاياها فربما استطاع
أن يملك الكثير ويهب الكثير ،
ولكنه لن يجد أحداً يستريح على صدره (١) .

الأميرة : ولكنه سيجد من يثق فيه ؛ وليس هذا بالقليل .
أتريد أن تطلب كل شيء من رجل واحد ؟
إن أنطونيو ينجز ما يعدك به .
وما هو إلا أن يعلن صداقته لك
حتى يتولى من شئونك ما أخطأت أو جهلت .
عليكما أن تتحدا . وسوف أغبط نفسي
إذا استطعت أن أحقق هذا الهدف الجميل عما قريب .
ولكن حذار أن تعاند كما تعودت أن تفعل !
ها هي ليونورا تقيم عندنا منذ وقت طويل
وما أرقها وألطفها ، وما أسهل أن يحيا معها الإنسان ،
غير أنك لم تفكر أبداً
في أن تكسب ودها كما كانت تنتظر .

تاسو : أنت أمرت فخضعت لأمرك ،

---

(١) وصف دقيق لشخصية انطونيو التي تنزع الى السيادة والتحكم ، فتبتعد عن اعماق الحياة ، وتجافيها أرواح الحب والفن والجمال . ومع أن في هذه الصورة شيئا غير قليل من الظلم ، فان أنطونيو لاينكرها على نفسه . (راجع المشهد الثاني من الفصل الرابع) .

ولولا هذا لفررت منها بدلا من التقرب إليها .
بالرغم من مظهرها الرقيق فلست أدرى
لماذا كان يصعب على أن أفتح لها صدرى ،
وعندما كنت أشعر بأنها تقصد أن تتلطف إلى أصدقائها
فقد كان الشعور بالقصد يعكر على صفوى .

الأميرة : لو سلكنا هذا الطريق يا تاسو
فلن نعثر أبداً على صديق !
إن هذا الدرب يضلنا
ويجعلنا نتوه فى الغابات الوحيدة والوديان الساكنة ؛
وشيئاً فشيئاً يرضى الوجدان عن نفسه
ويحاول عبثاً أن يخلق فى داخله
ذلك العهد الذهبى (١) الذى لم يجده فى الخارج .

تاسو : أى كلمة تنطق بها أميرتى !
أين إذن هرب هذا العهد الذهبى
الذى تتلهف عليه القلوب بغير طائل ؟
عندما كان الناس ينتشرون على الأرض الحرة (٢)

---

(١) العهد الذهبى فكرة قديمة تشير الى العصر السعيد الذى مضى ولن يعود . ولكن جوته يغير هنا من معناها القديم حين يشير بها الى عصر يمكن أن يتحقق فى المستقبل ، كما تدل على ذلك كلمات الأميرة فيما بعد .

(٢) يلاحظ النقاد فى الأبيات التالية بعض الصور والأفكار المستمدة من قصيدة تاسو « أمينتا » ومن الراعى المخلص » للشاعر جواريتى المنافس لتاسو .

كالقطعان السعيدة الراضية ؛
عندما كانت الشجرة العريقة المزهرة
تمد ظلالها للراعي والراعية ؛
وعندما كانت الأيكة الناضرة تلف غصونها الميادة
لتضم الحبيبين الملهوفين ؛
والنهر الرقيق ينسكب فى هدوء وصفاء
على الرمل النقى ويعانق حورية الماء ؛
والحية المذعورة تتوه فى العشب دون أن تؤذى أحداً
والحيوان الجسور يلوذ بالفرار
بعد أن نال العقاب من فتى شجاع ؛
وكل طائر يخفق حراً فى الهواء
وكل حيوان يهيم فى الجبال والوديان
يكلم الإنسان فيقول : كل ما يرضيك فهو مباح !

الأميرة : انقضى العهد الذهبى يا صديقى ،
وليس غير الأخيار من يحييه من جديد .
هل أصارحك بما يدور فى خاطرى ؟
أحسب أن هذا العهد الذهبى الذى يتغنى به الشعراء ،
هذا العهد الجميل لم يعرفه الناس قديماً
إلا كما نعرفه نحن اليوم ؛
وحتى لو كان قد وجد فى يوم من الأيام

فى وسع كل منا أن يعثر عليه من جديد .
ما برحت القلوب المتحابة تتلاقى ،
وما برحت تستمتع بهذا العالم الجميل ؛
وإنما تتغير يا صديقى فى الشعار
كلمة واحدة : كل ما يليق فهو مباح !

تاسو : ليت أن محكمة عامة تجتمع
من الطيبين والنبلاء
كى تقرر ما يليق وما لا يليق !
بدلا من أن يعتقد كل إنسان
أن ما يصح ويجوز هو ما يعود عليه بالمنفعة .
إننا نرى كيف أن الجبار والداهية
لا يضيره شىء ويستبيح لنفسه كل شىء .

الأميرة : إن أردت أن تعلم ما يليق
فعليك أن تسأل النساء النبيلات
ذلك لأن أكثر ما يهمهن
أن لا يحدث فى الحياة إلا ما يليق .
إن الذوق يحيط كالسور
بهذا الجنس الحساس الرقيق .
حيث تحكم الفضيلة يحكمن ،
وحيث تغلب الوقاحة لا تعثر لهن على أثر .

فان سألت الجنسين وجدت
أن الرجل يسعى إلى الحرية
والمرأة تسعى إلى الفضيلة .

تاسو : هل ترين أننا غلاظ شرسون ،
مجردون من كل عاطفة ؟

الأميرة : لا ! ولكنكم تطمحون دائماً إلى الأغراض البعيدة
وطموحكم لا يخلو أبداً من العنف .
إنكم تخاطرون حين تعملون من أجل الخلود
بينما لا نطمع نحن من خيرات هذه الأرض
إلا فى شيء متواضع قريب ، نتمنى ألا يزول .
نحن لا نضمن قلب أحد من الرجال
مهما بلغ صدقه فى يوم من الأيام .
الجمال الذى يبدو أنكم لا تجلون سواه يفنى ويزول
ما يبقى منه لا يجذب أحداً ، وما لا يجذب فلا أثر فيه للحياة .
لو أن الرجال عرفوا كيف يقدرون قلب المرأة ،
لو تبينوا أى كنز نقى من الحب والوفاء
يمكن أن يضمه صدر امرأة
لو أن ذكرى الساعات الجميلة النادرة
بقيت حية فى نفوسكم ،

لو أن نظرتكم النفاذة بطبعها
استطاعت كذلك أن تنفذ خلال القناع
الذى تلقيه الشيخوخة أو المرض علينا
لو أن التملك ، الذى كان ينبغى أن يكون مصدراً للسلام ،
لم يوقظ فيكم التعطش إلى المجهول البعيد :
إذن لأشرق علينا يوم جميل
ولاحتفلنا بعصرنا الذهبى .

تاسو : كلماتك أيقظت فجأة
هموماً كادت تهجع فى قلبى .

الأميرة : ماذا تقصد يا تاسو ؟ تكلم معى بحرية .

تاسو : سمعت أكثر من مرة ، وأسمع فى هذه الأيام
– ولو لم أسمع عن ذلك شيئاً ، لوجب على أن أتصوره –
أن بعض الأمراء النبلاء يسعون إلى طلب يدك !
هذا الذى كان ينبغى أن نتوقعه
أصبحنا الآن نخشاه حتى يكاد اليأس يصيبنا .
سوف تتركيننا ، هذه مشيئة الطبيعة ،
لكننى لا أدرى كيف سنحتمل هذا الفراق .

الأميرة : لا تحمل الآن هما !

بل أكاد أقول : لا تحمل أبداً أى هم !
إننى أحب الحياة هنا ، وأحب أن أبقى فى هذا المكان .
لست أعرف إلى الآن أن هناك صلة يمكن أن تغرينى .
وإذا كنتم تريدون أن تستبقونى معكم
فأثبتوا لى ذلك بالتآلف بينكم
وتعلموا أن تسعدوا أنفسكم لكى أسعد بكم .

تاسو : آه ، علمينى أن أفعل ما أستطيع !
إن أيامى كلها ملك يديك .
حين يزدهر قلبى بثنائك وشكرك
أحس بأصفى سعادة يمكن أن يحسها بشر .
حقيقة الألوهية السامية لم أعرفها إلا فيك .
كذلك تتميز آلهة هذه الأرض عن بقية البشر ،
كما يتميز القدر الأعلى عن مشورة أحكم الناس وإرادتهم .
إنهم يتركون أشياء كثيرة ، هى فى حسباننا أمواج عالية صاخبة ،
تمر كالموجات الخفيفة تحت أقدامهم بغير أن يلحظوها ،
إنهم لا يسمعون العاصفة التى تدوى حول رؤسنا وتدحرنا ،
لا يكادون يحسون شكوانا ويتركوننا

نحن الأطفال الضعفاء المساكين
نملأ الهواء بالتنهد والصياح .
أنت قد تحملتنى كثيراً ، يا أيتها الصديقة الالهية ،
وكالشمس جففت نظرتك الندى من أجفانى .

الأميرة : تنصف النساء إذ تعاملك معاملة رقيقة :
فأغانيك تترنم بالمرأة بمختلف الألحان .
وسواء كن رقيقات أو جريئات ،
فقد استطعت دائماً أن تصورهن
فى صورة محبوبة ونبيلة .
وإذا كانت «أرميد» تبدو فى أول الأمر كريهة (١)
فسرعان ما نسلم السلاح أمام فتنتها وحبها .

تاسو : مهما تنوعت الأنغام فى قصائدى
فأنا أدين بها جميعاً لواحدة ، لامرأة واحدة !
ليست صورة مثالية غامضة ، تلك التى تطوف أمام عينى ،
وتقترب مرة لتبهر روحى بضيائها وتختفى مرة أخرى

(١) فى هذا الموضع والمواضع التالية اشارات عديدة الى شخصيات وأحداث ترد فى ملحمة تاسو « اورشليم المحررة » . وهنا اشارة الى حب الساحرة أرميد لرينالدو . فهى تشعر انه يمتهنها فتحاول ان تقتل نفسها ولكن رينالدو يمنعها من ذلك ويتصالحان .

لقد رأيتها بعيني ، نموذج كل فضيلة ومثال كل جمال ؛

كل ما أبدعته على صورتها سوف يبقى :

حب تانكريد البطولى لكلورند (١) ،

وفاء أرمينيا الهادىء الذى لا يلفت أحداً (٢) ،

عظمة سوفرونيا وتعاسة أولنده (٣) ؛

ليست هذه أشباحاً ولدها الخيال ،

فأنا أعلم أنها خالدة ، لأنها كائنة .

وهل يحق لشىء أن يعبر القرون

ويواصل النمو والإشعاع فى سكون

كما يحق لسر حب نبيل

لم يثق إلا فى أغنية عذبة ؟

الأميرة : هل أحدثك أيضاً عن فضيلة أخرى

تجعل هذه الأغنية تتسلل إلى قلوبنا ؟

إنها تسحرنا وتغوينا ، فنسمع ونسمع ،

ونظن أننا فهمناها

---

(١) يتبارز تانكريد وكلورنده بغير أن يعرف أحدهما الآخر ، ولا يكتشف تانكريد حبيبته الا بعد أن يجرحها جرحا مميتا .

(٢) اشارة الى رغبة أرمينيا فى شفاء تانكريد بطريقة خارقة .

(٣) والى رغبة سوفرونيا فى التضحية بنفسها فى سبيل المسيحيين ، مما يعذب أولنده .

وما فهمناه منها لا نملك أن نعيبه ،
وهكذا تغزو هذه الأغنية أفئدتنا .

تاسو : أى سماء ، يا أميرتى ، تفتحين أبوابها لى !
إن لم يعمنى هذا البريق
فسوف أرى ، أنا الذى يئست من كل شىء ،
سعادة خالدة تهبط إلى على أشعة ذهبية .

الأميرة : لا تتماد يا تاسو ! هناك أشياء كثيرة
ينبغى علينا أن نتشبث بها بعنف ،
غير أن هناك أشياء أخرى يمكن بالاعتدال
وبالحرمان أن تصبح ملك أيدينا .
هكذا يريد الحب ، كما يقولون ، وتريد الفضيلة
التى هى شقيقته . فتذكر ذلك جيداً !

المشهد الثانى

ناسو : (وحده) : أمن حقك أن تفتح عينيك ؟
أتجرؤ أن تتلفت حولك ؟
أنت هنا وحدك !
هل سمعت هذه الأعمدة ما قالته ؟
وهؤلاء الشهود ، هؤلاء الشهود الخرس ،
على سعادتك الرائعة ، هل تشك فيهم ؟
ها هى الشمس تشرق على يوم جديد فى حياتى
لا يمكن أن تقاس به الأيام الحالية .
الإلهة تهبط إلى الأرض وترفع البشر الفانى إليها .
يا للأفق الجديد الذى يتفتح لعينى ، يا للمملكة الجديدة !
وأى مكافأة حلوة يجزى بها الشوق الحار !
كنت أحلم بأننى أقترب من السعادة السامية
فإذا بهذه السعادة تفوق كل الأحلام !
نفكر من ولد أعمى فى النور وفى الألوان كما يشاء
حتى إذا تجلى له النهار الجديد ولد له فكر جديد !

ها أنذا أسير على هذا الدرب ، مفعما بمشاعر الأمل والرجاء ،
نشوان أتمايل من الفرحة .
أنت تمنحيني الكثير ، كما تمنحنا الأرض والسماء
فتفيض علينا بكفين غنيتين ،
وكل ما تطلبينه الآن مني
حق تقتضيه عطاياك .
على أن أتعلم الحرمان وأظهر الاعتدال
لكي أستحق أن تثقي بي .

ماذا فعلت إذن حتى تختارني ؟
ماذا على أن أفعل حتى أكون بها جديراً ؟
لقد وثقت بك ، وبذلك جعلتك محلا للثقة .

أجل يا أميرتي ! فلأهب روحي إلى الأبد
لأجل كلماتك ونظراتك !
أجل ! اطلبي ما تشائين ، فأنا ملك يديك .
لترسلني إلى البلاد البعيدة بحثا عن المجد والمتاعب والأخطار ،
ولتمد إلى يدها في الغابة الساكنة بالقيثارة الذهبية ،
ولأنشد من أجلها أناشيد الراحة الهنيئة .
أنا ملكها ، فلتخلقني من جديد لأكون لها .

قلبي أحتفظ بكنوزه من أجلها .
لو أن ربا وهبني أن أتكلم بألف صوت
ما استطعت أن أعبر عن تقديسي لها .
لو أن لى فرشاة الرسام وشفة الشاعر ،
أحلى ما ذاق عسل الصيف من شفاه !
لا ، لن يهيم تاسو بعد الآن
وحيداً بين الأشجار وبين الناس
ضائعاً وضعيفاً ومحزونا !
لم يعد وحيداً ، إنه الآن معك .
آه لو أن أنبل الأعمال تمثل الآن أمامى
محاطاً بأبشع الأخطار !
إذن لأقدمت وخاطرت بهذه الحياة
التى تلقيتها من يديك —
ولدعوت أفضل الناس أن يكونوا من أصحابى
ولسرنا فى موكب نبيل كى نحقق المستحيل
بإشارة صغيرة من يديها .
أيها الملهوف ، لم لم تكتم شفتاك ما أحسست به
حتى تجد نفسك جديراً بالسجود عند قدميها ؟
كانت تلك هى نيتك ، وكانت هى رغبتك الحكيمة ،
ومع ذلك فليكن ما يكون ! فأجمل بكثير

أن تتلقى هذه الهدية الصافية التى لم تستحقها
على أن تتوهم أنها كانت من حقك !
كن سعيداً ! فما أروع الأفق الذى يمتد أمامك ؟
وما أعظمه ! وها هو الشباب المفعم بالآمال
يغريك بالمستقبل المضىء المجهول .
ترنم يا قلبى ! ويا سماء الحظ
باركى هذه النبتة التى تشرئب إليك !
إنها تتطلع إلى السماء ، آلاف الأفرع
تبزغ منها وتتفتح زهرات .
آه فلتعطنا الثمار ، ولتعطنا الأفراح !
حتى تمتد يد حبيبة فتقطف الحلية الذهبية
من أغصانها الخصبة الناضرة !

المشهد الثالث

(تاسو — أنطونيو)

تاسو : مرحباً بك ، يا من أراه اليوم لأول مرة !
ومن لم أكن أتوقع أفضل منه . مرحباً بك !
أنا الآن أعرفك وأعرف قدرك ،
وبغير ما تردد أقدم لك قلبي ويدى ،
وأطمع بدورى ألا تستصغر شأنى .

أنطونيو : أنت تحبونى بهداياك الجميلة
التى أعرف قدرها كما ينبغى ،
ولكن دعنى أتردد قبل أن أمد إليها يدى ،
فلست أدرى إن كنت أستطيع أن أرد عليك بمثلها .
لست أحب أن أبدو متعجلا أو جاحداً ،
فاسمح لي أن أكون حكيما وحريصاً من أجلنا معا .

تاسو : من ذا الذى يلوم هذه الحكمة ؟
إن كل خطوة فى الحياة تقنعنا بضرورتها .
ولكن الأجمل من ذلك أن تحدثنا النفس

بأن فى استطاعتنا أن نستغنى عن الحرص .

أنطونيو : ليرجع كل إنسان فى هذا إلى إحساسه
لأن عليه أن يتحمل بنفسه وزر خطئه .

تاسو : ليكن الأمر كذلك . لقد قمت بواجبى ،
واحترمت كلمة الأميرة التى تريد أن نكون أصدقاء
وسعيت بنفسى إليك .
لم يكن فى وسعى أن أتراجع يا أنطونيو ؛
ولكننى لا أنوى أن أفرض نفسى عليك :
ليبق الأمر على ما هو عليه . فربما جاء اليوم
الذى نزداد فيه ألفة فتحتفى بهديتى
التى ترفضها الآن فى برود وتكاد تحتقرها .

أنطونيو : كثيراً ما يبدو الرجل المعتدل بارداً
بالنسبة لمن يعتقدون أنهم أدفأ من غيرهم إحساساً ،
لأن حرارة الحمى قد تمكنت منهم .

تاسو : أنت تلوم ما ألومه وأتحاشاه .
وأنا ، وإن كنت لا أزال شاباً ،
أعلم تمام العلم أن الاتزان خير من الاندفاع .

أنطونيو : تلك هى الحكمة بعينها ! فلتبق دائماً على هذا الرأى .

تاسو : من حقك أن تسدى إلى النصح وتحذرنى

لأن التجربة تقف إلى جانبك كالصديقة الوفية .
ولكن صدقني : أن هناك قلبا هادئا
ينصت إلى الدرس الذى يلقيه كل يوم وكل ساعة عليه ،
ويجتهد فى الخفاء أن يصل إلى ذلك الخير
الذى تعتقد بقسوتك أنك تستطيع أن تعلمنا فيه درساً جديداً .

أنطونيو : من الممتع حقاً أن يشغل الإنسان بنفسه
إذا كان فى ذلك بعض الفائدة .
إن الإنسان لا يستطيع أن يعرف حقيقة نفسه بالتأمل فى نفسه ؛ ذلك لأنه يحتكم إلى مقياسه وحده
فيستصغر نفسه أو يضخمها للأسف فى أغلب الأحيان .
إن الإنسان لا يعرف نفسه إلا من خلال الإنسان ،
والحياة وحدها هى التى تعرف كل امرىء بحقيقته .

تاسو : إننى أسمعك فى احترام وأرحب بكل ما تقول .

أنطونيو : ومع ذلك فربما فهمت من هذه الكلمات
شيئاً يختلف عما أريده كل الاختلاف .

تاسو : إذا سرنا على هذا الطريق فلن نقترب من بعضنا البعض .

ليس من الحكمة ولا من الخير أن نتعمد إساءة الظن بإنسان أيا كان .
إن دعوة الأميرة لم يكن لها داع . فقد عرفت من زمن بعيد
أى إنسان أنت . أعلم أنك تريد الخير وتفعله .
إن قدرك لا يهمك . ولهذا تفكر فى غيرك وتقف إلى جانبه ،
ويظل قلبك ثابتاً على أمواج الحياة المتقلبة ..
هكذا أراك . وماذا يكون شأنى إن لم أسع إليك ؟
ألم أتلهف على نصيب من الكنز الذى تضن به ؟
أعلم أنك لن تندم إذا فتحت لى صدرك ،
وأعلم أنك ستصادقنى إذا عرفتنى على حقيقتى :
وقد كنت من زمن طويل فى حاجة إلى مثل هذا الصديق .
إننى لا أخجل من قلة تجربتى ولا من شبابى .
لم تزل سحابة المستقبل الذهبية ترف حول جبهتى .
آه فلتأخذنى ، يا أيها النبيل ، على صدرك
ولتعلمنى ، وأنا الطائش الجاهل ،
سر الاعتدال فى الحياة .

أنطونيو : إنك تطلب فى لحظة واحدة
ما لا يكفله الزمن إلا بالحكمة والروية .

تاسو : إن الحب يكفل فى لحظة واحدة
ما لا يدركه الجهد فى زمن طويل .
لست أرجوك وإنما أطالبك .
إننى أدعوك باسم الفضيلة
التى تجاهد فى الربط بين القلوب النبيلة .
وهل أسمى لك اسما ؟
إن الأميرة هى التى تأمل هذا ، هى التى تريده .
اليونورا هى التى تريد أن تقربنى منك، وتقربك منى .
فلا تجعلنا نرفض رغبتها !
دعنا نتقدم إلى الربة متحدين ،
لنهبها صلاتنا ونمنحها روحنا
ولنحقق معا ما يليق بها .
مرة أخرى . هذه يدى ! فصافحها !
لا تتراجع أيها النبيل ولا تتأبى
ولتتح لى أجمل متعة يتذوقها الفضلاء
الذين يهبون أنفسهم للأفضل فى ثقة وبغير تحفظ .

أنطونيو : أراك تبحر بملء شراعك !
فقد تعودت فيما يبدو على أن تنتصر فى كل معركة ،

وأن تجد الطرق ممهدة أمامك والأبواب مفتوحة .
إننى أرضى لك بالفضل والسعادة عن طيب خاطر .
غير أنني أرى بوضوح أن كلينا ما زال بعيداً كل
البعد عن صاحبه .

تاسو : ربما فرقت بيننا السنون والتجارب
أما الشجاعة والإرادة الطيبة
فلست أقل فيهما عن أحد .

أنطونيو : الإرادة لا تكفى للإتيان بجلائل الأعمال ؛
والشجاعة تتصور الطرق أقصر من حقيقتها .
من يصل إلى الهدف يوضع التاج على رأسه ،
وكثيراً ما يحرم منه من هو أولى به .
إن التيجان اليسيرة موجودة ، ومتعددة الأنواع :
وكثيراً ما ينالها من يتنزه بغير مجهود .

تاسو : إن ما تمنحه يد الرب لهذا أو تمنعه باختيارها عن ذاك
ليس شيئاً يمكن أن يدركه كل من أحب أو شاء .

أنطونيو : أرجع هذا إلى الحظ دون غيره من الأرباب ،
بذلك أوافقك لأنه أعمى عن الاختيار .

تاسو : العدالة أيضاً معصوبة العينين ،
تغمض البصر عن كل بريق خداع .

أنطونيو : هل يمجد الحظ إلا المحظوظ ؟ !
إنه يجعل له ألف عين ترى فضله
ويمتدح اختياره الصائب وعنايته الشديدة
وسواء سماه «مينرفا» أو ما شاء من أسماء
فهو يعد المنحة مكافأة ،
والحلية التى خلعتها عليه الصدفة
زينة نالها عن جدارة واستحقاق .

تاسو : لست فى حاجة إلى أن تكون أوضح من هذا .
كفى ! إننى أنظر فى أعماق قلبك وأعرفك مدى الحياة .
آه لو أن أميرتى أيضاً عرفتك على حقيقتك !
لا تبذر فى سهام عينيك ولسانك !
لقد حاولت عبثاً أن توجهها إلى هذا التاج ،
هذا التاج الذى لن يذبل على جبينى .
كن كبير القلب ولا تحسدنى عليه
فقد تستطيع عندئذ أن تنازعنى إياه .
إنه عندى أقدس وأسمى ما أملك .
أرنى مع ذلك الرجل الذى نال ما أطمح إليه ،
أرنى البطل الذى لم أسمع عنه إلا من حكايات التاريخ ؛
دلنى على الشاعر الذى يستطيع أن يقرن نفسه

بهوميروس أو فرجيل ،
لا بل إننى لأطلب منك أن تدلنى
على رجل استحق هذه الهدية ثلاث مرات ،
وأخجله هذا التاج أكثر مما أخجلنى ثلاث مرات :
إن فعلت هذا فسترانى أركع على قدمى
أمام الربة التى أسبغت على هذه النعمة ؛
ولن أنهض عندئذ قبل أن تمد يديها
وتخلع هذه الزينة من على جبينى لتضعها على جبينه .

أنطونيو : إلى أن يتم ذلك فسوف تظل بالطبع جديرا بها .

تاسو : لأوضع موضع الأختبار ، فلست أعترض على هذا ،
أما الاحتقار فلم أفعل ما يجعلنى أستحقه .
إن التاج الذى كرمنى به أميرى
وضفرته أميرتى بيديها
لا يستطيع أحد أن ينكره على أو يسخر به .

أنطونيو : هذه اللهجة المتعالية ، وهذا الغضب الملتهب
لا يصح أن توجههما إلىّ ، ولا يليقان بك فى هذا المكان .

تاسو : إن ما تسمح به هنا لنفسك ، يليق أيضاً بى
هل نفيت الحقيقة من هذا المكان ؟

هل سجنت الروح الحرة فى هذا القصر ؟
وهل يتحتّم على النفس النبيلة أن تتحمل الاضطهاد ؟
أعتقد أن النبل وسمو الروح هنا فى مكانهما الصحيح .
أحرام عليها أن تسعد بالقرب من عظماء هذه الأرض؟
بل إن فى استطاعتها ومن واجبها أن تفعل .
إننا لا نقترب من الأمير
إلا بالنبالة التى ورثناها عن الآباء ؛
فلماذا لا نقترب منه بالوجدان العظيم
الذى لم تشأ الطبيعة أن تعطيه لكل إنسان
كما لم تشأ أن تمنح الجميع سلسلة من الأسلاف العظام ؟
لا يشعر بالرعب هنا إلا الصغار ،
وإلا الحسد الذى يكشف عن عاره ؛
كذلك لا يصح لنسيج عنكبوت قذر
أن يعلق بهذه الجدران المرمرية .

أنطونيو : أنت تعطينى بنفسك الحق فى امتهانك !
أيريد الصبى المتهور أن يغتصب ثقة الرجل وصداقته ؟
أتظن نفسك خيرا وأنت عديم الأخلاق ؟

تاسو : خير لى أن أوصف بما تسميه عدم الأخلاق .
لى من أن أوصف بما يمكن أن أسميه بالانحطاط .
أنطونيو : ما زلت صغيراً إلى الحد الذى تستطيع معه التربية
الصحيحة ، أن تعلمك السير على طريق أفضل .
تاسو : لست صغيراً إلى حد أن أركع أمام الأصنام ،
بل كبير إلى الحد الذى يجعلنى أواجه التحدى
بالتحدى .
أنطونيو : حينما تكون الكلمة للشفاه والأوتار
فأنت البطل والمنتصر بلا جدال .
تاسو : ربما كان من الجرأة أن أفتخر بيمينى
فهى لم تفعل شيئا ، ومع ذلك فإننى أعتمد عليها .
أنطونيو : إنما تعتمد على التسامح الذى دللك كثيراً
فى حين تابع حظك طريقه الوقح .
تاسو : الآن أشعر أننى تجاوزت الطفولة .
كنت آخر من يمكن أن أجرب معه لعبة السلاح :
لكنك تزيد النار اشتعالا ؛ النخاع يغلى ،
والشهوة الأثيمة إلى الانتقام تفور فى صدرى .
إن كانت لديك الرجولة التى تتباهى بها فهيا إلى
النزال .

أنطونيو: أنت تجهل من أنت كما تجهل مكانك .

تاسو : مامن قداسة تدعونا إلى احتمال الهوان .

أنت الذى تكفر وتدنس هذا المكان ،

لا أنا الذى جئت أقدم لك أجمل قربان

من الثقة والمحبة والتكريم

إن روحك هى التى تلوث هذا الفردوس

وكلماتك تلوث هذه القاعة النقية

لا الإحساس الذى يثور فى قلبى ويفور .

ويأبى أن يلطخه أدنى عار .

أنطونيو : أى روح عظيم فى قلب ضيق !

تاسو : لايزال فيه متسع للتنفيس عن الصدر .

أنطونيو : العامة تنفس أيضاً عن غضبها بالكلام .

تاسو : إن كنت نبيلا مثلى فأثبت ذلك .

أنطونيو : إننى كذلك بالفعل ، ولكنى أعرف مكانى .

تاسو : تعال معى إذن إلى حيث يحكم السلاح .

أنطونيو : كما لم يكن لك أن تطلبنى للنزال ، فكذلك لن أتبعك .

تاسو : بمثل هذه العقبة يرحب الجبن .

أنطونيو : الجبان لايتوعد إلا حين يشعر بالأمان .

تاسو : يمكننى أن أزهد فى هذه الحماية عن طيب خاطر .

أنطونيو : إغفر إن شئت ما أذنبته فى حق نفسك ،
ولكن لا تغفر ما أذنبت به فى حق هذا المكان .

تاسو : فليغفر لى المكان أننى احتملت هذا .

(يجرد سيفه)

جرد سلاحك أو اتبعنى .

إلا إذا كنت تريد ،

أن أحتقرك إلى الأبد كما أكرهك !

المشهد الرابع

(ألفونس — السابقون)

ألفونس : ماذا أرى ؟ أى نزاع لم أكن أتوقعه ؟

أنطونيو : أنت ترانى ، يا أمير ، أقف فى اتزان
أمام إنسان تملكه الغضب .

تاسو : أتوسل إليك كما أتوسل لإله
أن تمسك زمامى بنظرة واحدة منك .

ألفونس : قل لى يا أنطونيو ، وأنت يا تاسو ،
كيف نفذ الشقاق إلى بيتى ؟
كيف استولى عليكما ، كيف استطاع
أن ينتزع حكيمين مثلكما
عن سبيل الشرائع والأخلاق .
إننى فى عجب من الأمر .

تاسو : أعتقد أنك لا تعرفنا حق المعرفة .
هذا الرجل ، المشهور بالحكمة والخلق الطيب ،

عاملني معاملة فظة لئيمة
كما يفعل مخلوق لاحظ له من الأدب أو النبل .
سعيت إليه راجيا فصدني :
لم أيأس فظللت أتقرب منه
لكنه احتد في مرارة فلم يسترح
حتى أحال أصفى قطرة فى دمى إلى علقم .
معذرة ! لقد وجدتني أجن من الغضب.
ولكن إذا كنت قد أخطأت فهذا هو المسئول .
لقد أشعل نار الغضب التي استولت على وجرحتني
وجرحته .

أنطونيو : إن حماس الشعراء قد ذهب به بعيداً !
لقد بدأت ، يا أمير ، بتوجيه السؤال إلى ،
فا أذن لى الآن ، بعد هذا الحديث المندفع ، بالكلام .

تاسو : أجل ، إرو ما حدث ، إروه كلمة كلمة !
وحاول إن استطعت أن تصف
كل مقطع وكل إشارة أمام هذا القاضى !
أهن نفسك مرة أخرى ، واشهد على نفسك !
أما أنا فلن أنكر نفسا ولا نبضة قلب .

أنطونيو : إن كان لديك ما تقوله فتكلم ،
وإلا فاسكت ولا تقاطعني .

إن كنت أنا ، يا أميرى ، الذى بدأت النزاع
أو كان هذا الرأس المندفع هو الذى بدأ به ،
ومن منا الذى يتحمل الخطأ ،
فتلك أسئلة طويلة لا ضرورة الآن للإجابة عليها .

تاسو : كيف هذا ؟! إن السؤال الأول فى رأيى
هو من المخطىء فينا ومن المصيب ؟

أنطونيو : ليس هذا صحيحا ، كما قد يخيل لعقل أفلت منه الزمام .

ألفونس : أنطونيو !

أنطونيو : مولاى ! إننى أخضع لإشارتك ، ولكن مره أن يلزم الصمت .
فإذا فرغت من كلامى أمكنه أن يستطرد الحديث ،
وسوف تقرر الأمر بنفسك .
هذا هو ما أريد أن أقول :
إننى لا أستطيع أن أجادله
كما لا أستطيع أن أتهمه أو أدافع عن نفسى
ولا أن أحاول الآن أن أسترضيه .
ذلك لأنه الآن لم يعد إنسانا حراً .

إن قانونا ثقيل العبء يرزح فوق رأسه .
ولن يخفف منه سوى عفوك ورحمتك .
لقد هددنى فى هذا المكان ، وطلب منى النزال ؛
ولم يكد يخفى أمامك السيف العارى.
ولو لم تتدخل بيننا يا مولاى
لرأيتنى أقف الآن خجلا أمامك
وقد نسيت واجبي وشاركته فى إثمه .

ألفونس : (لتاسو) : لم تحسن التصرف .

تاسو : إن قلبي يبرئنى يا مولاى
ولا شك أيضاً أن قلبك يبرئنى .
لقد هددت حقا ، وطلبت النزال ، وجردت سيفى .
ولكنك لن تتصور كيف راح لسانه اللئيم
ينتقى الكلمات الجارحة ،
ولا كيف راح نابه السريع الحاد
يسكب السم الرهيف فى دمى
ولا كيف مضى يشعل نار الحمى ويزيدها اشتعالا
لقد ظل يثيرنى فى هدوء وبرود ويخرجنى عن طورى:
آه ! إنك لا تعرفه ! لا تعرفه ولن تعرفه أبدا !
حملت إليه من القلب أجمل صداقة

فألقى عطاياى عند قدميه ؛
ولو لم تشتعل نفسى غضبا
لما كانت أبدا جديرة بنعمتك
ولا استحقت أن تكون فى خدمتك .
إن كنت نسيت القانون
وحرمة هذا المكان فاغفر لى .
لا يصح أن أحتقر فى أى مكان ،
ولا يصح فى أى مكان أن أحتمل الهوان .
وإذا حدث لهذا القلب ، أينما كان ،
أن يقصر فى حقك وفى حق نفسه
فعاقبنى واطردنى
ولا تجعل عينك تقع مرة أخرى على وجهى .

أنطونيو : ما أخف ما يحمل الشاب الأعباء الثقال
وما أيسر أن ينفض الأخطاء عن ثوبه كما ينفض الغبار !
لو كنا نعرف سحر الشعر الذى يهوى العبث مع المستحيل
أقل مما نعرفه ، لكان فى هذا ما يبعث على العجب .
ولا أكاد أصدق يا أميرى
أنك ستستهين بهذا الفعل
أو يستهين به أحد من خدمك .

إن الجلالة تظل بحمايتها
كل من يدنو منها ومن مسكنها الحرام
كما يدنو من إله .
وكل عاطفة تكبح جماحها
حين تلامس عتبتها
كأنها تقترب من مذبح مقدس .
هناك لا يلمع سيف ، ولا يتوعد صوت
ولا تصرخ الإهانة نفسها مطالبة بالثأر .
أما وراء ذلك ففى الميدان متسع
للغضب والحقد والصراع :
هناك لا يهدد الجبان ، ولا يهرب الشجاع .
هذه الأسوار قد أقامها آباؤك
على قاعدة من الطمأنينة والأمان ،
وشادوا لعزتهم قدسا حصينا
وحافظوا فى جد وذكاء
بالجزاء الرادع على هذا السلام ،
وأخذوا المذنب بالنفى والطرد والموت .
لم يكن هناك اعتبار للأشخاص
ولم توقف الرأفة ذراع العدالة
وأحس المستهتر نفسه بالفزع .

وها نحن بعد السلام الجميل الممدود
نرى الغضب المجنون يعود إلى حمى الأخلاق
إحسم يا مولاى وعاقب !
ألا يستحق من يلتزم بحدود الواجب
أن يتمتع بحماية القانون ونصرة الأمير ؟

ألفونس : إن ضميرى المحايد ليستمع
إلى أكثر مما تقولان أو يمكنكما أن تقولاه .
ليتكما أحسنتما أداء الواجب
ولم تلجئانى إلى النطق بهذا الحكم .
ذلك لأن العدل والظلم هنا متقاربان .
إذا كان أنطونيو قد أساء إليك
فإن من واجبه بطريقة أو بأخرى
أن يقدم لك التعويض الذى تشاء .
وسوف يسرنى أن تجعلانى حكما بينكما .
إن خطأك يا تاسو يجعل منك سجينا .
إننى أعفو عنك ، وأخفف القانون من أجلك .
اتركنا يا تاسو ، والزم حجرتك
واجعل من نفسك حارسا على نفسك .

تاسو : أهذا هو الحكم الذى تقضى به يا أمير ؟

أنطونيو : ألا تتبين فيه رأفة الأب الحنون ؟

تاسو : (لأنطونيو) : لم يعد لى من الآن معك حديث .
(لألفونس) : ان كلمتك الصارمة يا أمير
تسلمنى ، وأنا الحر ، للسجن .
لتكن مشيئتك . ما دمت تعتقد أنها الحق .
ها أنا ذا أحترم أمرك المقدس .
وأسكت الصوت الذى يصرخ فى أعماق قلبى .
إن الأمر جديد على ، جديد إلى الحد الذى لا أملك معه
أن أتعرف عليك أو على نفسى أو على هذا المكان
الجميل .
أما هذا الرجل فإننى الآن أعرفه .
سأطيع أمرك ، وإن بقى الكثير
مما أستطيع وما ينبغى على أن أقول .
إن الصمت يخرس شفتى . أكانت جريمة ؟
إنها على الأقل تبدو كذلك ، لأننى أعد الآن مجرما .
وسواء ما يقوله لى قلبى ، فأنا الآن سجين .
ألفونس : أنت تهول الأمر يا تاسو أكثر مما يستحق .
تاسو : إن الأمر يبدو لى لغزا ،
أو لعله ليس لغزا ، فأنا لم أعد طفلا .
وأكاد أقول لا بد أن أفهمه .
إننى ألمح نورا على حين فجأة

وفى لحظة أراه قد خمد .
لا أسمع غير الحكم على ، فأنحنى له .
أقول لنفسى : لقد تكلمت كثيراً بغير طائل .
فتعود من الآن أن تخضع .
أيها العاجز ! لقد نسيت مكانك
وظننت أن قاعة الآلهة على الأرض ،
وها هى السقطة المباغتة تفجؤك .
إرض بالخضوع ، فخليق بالرجل
أن يفعل ما يكرهه عن طيب خاطر .
خذ أولا هذا السيف الذى أعطيته لى
عندما تبعت الكاردينال إلى فرنسا ،
لقد حملته فلم أكسب به مجدا ،
ولم أجر يوما على نفسى العار .
ولا فعلت ذلك اليوم .
هذه الهدية التى علقت عليها الآمال
أتنازل عنها بقلب متأثر كسير .

ألفونس : أنت لا تدرى بشعورى نحوك .

تاسو : كتب على أن أطيع لا أن أفكر !
كما أراد القدر للأسف منى
أن أزهد فى هدية أروع .

إن التاج لا يناسب السجين ،
ولذلك أنزع بنفسى الزينة
التى حسبت أنها خلعت على جبهتى إلى الأبد .
لقد نعمت بالسعادة الفائقة فى أول الصبا
غير أنها سرعان ما سلبت منى
وكأننى تبطرت عليها .
إنك تنزع عن نفسك ما لا يستطيع أحد أن ينزعه عنك
وما لا يهبه إله للمرة الثانية .
إننا نحن البشر نمتحن امتحانا عجيبا ،
وما كان لنا أن نصبر أو نحتمل
لو لم ترزقنا الطبيعة بالاستخفاف البرىء .
تعلمنا الشدة كيف نبدد
فى النعم التى لا تقدر
ونفتح أكفنا بإرادتنا
لتفلت منها النعمة إلى غير رجعة .
مع هذه القبلة أذرف دمعة
تهبك للزوال ! إنها من حقنا ،
هذه العلامة الرقيقة على ضعفنا .
من الذى لا يبكى حين يرى
أن الخلود نفسه لا يأمن الدمار ؟

إلحق الآن بهذا السيف ، إالذى لم يكسب من أجلك
شيئاً !
إقترب منه وارقد على قبر سعادتى وأملى
كما ترقد على تابوت الشجعان !
ها أنا ذا أضعهما طائعا عند قدميك :
فمن ذا الذى يملك سلاحا أمام غضبك ؟
ومن يتزين ، يا مولاى ، إن أنت أهملته ؟
إننى أمضى سجينا ، وأنتظر حكمك .
(يشير الأمير فيرفع أحد الخدم السيف والإكليل
ويحملهما بعيداً)

المشهد الخامس

(ألفونس ــ أنطونيو)

أنطونيو : إلى أين يهيم الغلام ؟ بأى الألوان
يرسم قيمته وقدره ؟
إن الشباب ، بجهله وقصوره ،
يتوهم نفسه شيئا فريداً مختارا
ويستبيح لنفسه كل شيء عن كل إنسان .
فليشعر بأنه معاقب ، فالعقاب يحسن إلى الفتى
الذى سيشكرنا عليه حين يصبح رجلا .

ألفونس : لقد لقى عقابه ، وأخشى أن يكون قد زاد عليه العقاب.

أنطونيو : إن شئت أن ترأف به
فأعد إليه حريته يا أمير ،
وليحسم السيف ما بيننا من خلاف .

ألفونس : إن اتفقت الآراء على هذا فليكن لك ما تريد .
ومع ذلك قل لى ، كيف أثرت غضبه ؟

أنطونيو : لا أستطيع تفسير ما حدث .

ربما أسأت إليه كإنسان :
غير أنني ما أهنت فيه الرجل النبيل .
إنه في قمة غضبه لم تفلت من شفتيه كلمة نابية .

ألفونس : هكذا بدا لي ما وقع بينكما من خلاف .
وحديثك يؤيد ما خطر لأول مرة على بالي .
عندما يتنازع رجلان فالعقل يميل
إلى إلقاء الذنب على أكثرهما حكمة .
لم يكن ينبغي عليك أن تثير غضبه ،
بل كان الأولى بك أن ترشده وتهديه .
ما زال في الوقت متسع ،
وليس في الأمر ما يضطركما إلى الخلاف .
وما دام السلام يرفرف على بلادي
فإنني أحب أن أتمتع به في بيتي .
أعد الطمأنينة إليه – إن هذا أمر يسير عليك .
لتبدأ ليونورا سانفيتاله ولتحاول
أن تهدئه بكلماتها الرقيقة .
ولتذهب إليه بعد ذلك كي تعيد
إليه حريته الكاملة على لساني ،
ولتكسب ثقته بالكلام الصادق النبيل .
أنجز هذا الأمر بأسرع ما تستطيع

وليكن حديثك معه حديث الوالد والصديق .
أريد أن أطمئن إلى عودة السلام قبل الرحيل ،
وما من شيء يستحيل عليك ، مادمت تريد .
لنمد إقامتنا ساعة أخرى
وبعد ذلك فلنترك للنساء
أن يتممن فى حنان ما بدأت ؛
فإذا رجعنا لم نجد
أثرا لهذا الحادث السريع .
يبدو يا أنطونيو أنك لا تريد
أن تخلى يديك من العمل . فلم تكد تفرغ من مهمة
حتى رجعت تبحث عن أخرى،
أرجو أن تكلل فيها بالنجاح .

أنطونيو : لقد أخجلتنى وجعلتنى كلماتك
أرى خطئى كما لو كنت أنظر فى مرآة صافية !
ما أسهل أن يطيع المرء سيدا نبيلا
يقنعنا حين يلقى علينا أوامره .

الفصل الثالث

المشهد الأول

الأميرة : (وحدها) أين ليونورا ؟ كل لحظة تمر على
تحرك الألم فى صميم الفؤاد .
لا أكاد أدرى ما حدث ،
لا أكاد أدرى من منهما المخطىء .
آه ليتها تجىء ! فلست أحب
أن أتحدث مع شقيقى الفونسو
قبل أن يعود إلى نفسى الهدوء
وقبل أن أعرف ما حدث
وما يمكن أن تصير إليه الأمور.

المشهد الثانى

(الأميرة – ليونورا)

الأميرة : ماذا تحملين معك يا ليونورا ؟ أخبريني ،
كيف حال صديقينا ؟ ماذا جرى ؟

ليونورا : لم يصل إلى علمى أكثر مما نعلم .
وقع صدام بينهما ، فجرد تاسو سيفه
وفرق شقيقك بينهما . بيد أنه يبدو
أن تاسو هو الذى بدأ النزاع :
إن أنطونيو يذهب ويجىء حرا
ويتكلم مع أميره ؛ أما تاسو
فهو منفى وحيد فى حجرته .

الأميرة : لا بد أن أنطونيو استفزه
وأهان الروح الشاعرة فى برود وجفاء .

ليونورا : أنا أيضاً أعتقد هذا . فقد رأيت
سحابة تطوف بجبهته حين أقبل عليه .

الأميرة : آه ! لماذا نغفل فى مثل هذا الموقف

عن طاعة الإشارة النقية الهادئة التى تأتى من القلب ؟
بصوت هامس يتحدث إله فى صدورنا ،
بصوت خافت ، ولكنه مسموع ، يدلنا
على ما نغتنمه وما نتحاشاه .
بدا لى أنطونيو صباح اليوم
أكثر غلظة مما عهدت وأشد انزواء .
أحسست بأن روحى تنذرنى
حين رأيت تاسو يقترب منه .
قلت يكفى أن أرى مظهريهما ؛
الوجه والتعبير والنظرة والخطوة !
إنهما مختلفان فى كل شىء ،
ولن يستطيعا أبدا أن يتبادلا الحب .
ومع ذلك فإن الأمل ، هذا المنافق ،
راح يقنعنى بقوله : إنهما عاقلان
نبيلان وبصيران وصديقان لك »
وأى رباط أوثق من رباط
يجمع بين القلوب الكبيرة ؟
ما كان أجمل وأصدق ما وهب نفسه لى !
آه ليتنى تكلمت على الفور مع أنطونيو !

ترددت ، وكان الوقت ضيقا ؛
تهيبت أن أبدأ كلامي معه
فأوصيه بالشاب وألح عليه ،
إعتمدت على التقاليد والآداب
والعرف المألوف بين الناس
الذى يرعاه حتى الأعداء ؛
ولم أخش على الرجل المجرب
من اندفاع الشباب المتهور .
ولكن حدث ما خشيت . ظننت الشر بعيداً ،
وها هو الآن قريب . ماذا أفعل ؟ أشيرى علىّ !

ليونورا : أنت تعرفين أن من الصعب علىّ أن أشير
بعد ما قلته بنفسك . فليس الأمر هنا أمر سوء تفاهم
بين أناس متشابهين فى التفكير ،
فذلك أمر تصلحه الكلمات أو يصلحه السلاح
إن دعا الأمر فى يسر وبغير عناء .
شعرت من زمن بعيد أنهما رجلان
يعادى أحدهما الآخر لأن الطبيعة
عجزت عن أن تكون منهما رجلا واحدا ،
ولو فطنا إلى مصلحتهما لأصبحا أصدقاء ،
ولوقفا كرجل واحد وتقدما فى الحياة

قويين سعيدين مرحين ،
هكذا كنت أرجو ، غير أنى أرى الآن عبث الرجاء .
إن الخلاف الذى وقع اليوم ، أيا كان أمره ،
يمكن أن ننهيه ؛ غير أن هذا
لا يضمن لنا المستقبل ولا يؤمننا على الغد .
لقد فكرت أن من الأفضل أن يسافر تاسو
ويغادر هذا المكان إلى حين ،
إنه يستطيع أن يتجه إلى روما أو إلى فلورنسا ؛
هناك ألتقى به بعد أسابيع قليلة
وقد أؤثر على وجدانه تأثير الصديق .
أما أنت فتستطعين أن تحاولى من جديد
أن تقربى أنطونيو منك ومن أصدقائك
وهو الذى كاد يصبح غريبا عنا .
كل هذا الذى يبدو الآن مستحيلا
قد يحققه الزمن الطيب الذى يحقق الكثير .

الأميرة : تريدين ، يا صديقتى ، أن تستأثرى بالمتعة ،
وتتركينى للحرمان ، فهل هذا من الإنصاف ؟

ليونورا : لن تحرمى فى هذه الحالة إلا من شىء
لن يمكنك أن تستمتعى به .

الأميرة : أأنفى صديقا لى بكل هذا الهدوء ؟

ليونورا : بل ستحتفظين به وإن نفيته فى الظاهر .

الأميرة : لن يوافق شقيقى على تركه .

ليونورا : إذا رأى الأمر كما نراه فسوف يقبل .

الأميرة : من الصعب أن يجنى الإنسان على نفسه بجنايته على صديق .

ليونورا : ومع ذلك فالصديق هو الذى تنقذينه فيك .

الأميرة : لا لن أوافق على أن يحدث هذا .

ليونورا : إنتظرى إذن أن يحدث ماهو أسوأ .

الأميرة : أنت تعذبيننى ولا تدرين كيف تحسنين إلىّ .

ليونورا : عما قريب نتبين من المخطىء فينا .

الأميرة : إذا لم يكن مفر من ذلك فلا تلحى على بالسؤال .

ليونورا : من يصمم يهزم الألم .

الأميرة : لا أستطيع أن أصمم ، ولكن ليكن لك ما تريدين
ما دامت غيبته عنا لن تطول —
ولنرع شئونه يا ليونورا
حتى لا يقاسى فى المستقبل من الحرمان
وحتى يرضى الأمير أن يرسل إليه فى غربته
راتبه الذى يكفل له الحياة .
تكلمى مع أنطونيو ، فهو يملك أن يؤثر على شقيقى ،
ولن يحفظ هذا النزاع قلبه ·

على صديقنا أوعلينا .

ليونورا : كلمة واحدة منك يا أميرة أقوى فى التأثير .

الأميرة : تعلمين يا صديقتى أننى لا أستطيع
أن ألتمس شيئا لنفسى أو لأصدقائى
كما تفعل شقيقتى التى تعيش فى أوربينو .
إننى أحب أن أقضى حياتى فى هدوء
وأتلقى من شقيقى فى امتنان
كل ما يستطيع أويريد أن يعطيه لى .
كثيراً ما لمت نفسى على هذا ،
لكننى الآن قد تغلبت على هذه النزعة .
وكثيراً ما عاتبتنى صديقة على هذا وقالت لى :
أنت تحبين بطبعك الإيثار ، وهذا شىء جميل ،
غير أنك تبالغين فى ذلك فلا تحسين
بما يحتاج إليه أصدقاؤك .
نعم إننى أدع الأمور تجرى فى سبيلها
ولابد لى أن أتحمل هذا العتاب
ولكن مما يزيدنى سعادة أن أتمكن الآن
أن أمد يد العون لصديقى ،
لقد ورثت هذا عن أمى ،
وأود الآن أن أرعاه .

ليونورا : وأنا يا أميرة أرى الفرصة سانحة

لكى أبرهن له على صداقتى .

لقد كان دائما يسىء تدبير شئونه

وسأعرف كيف أساعده كلما احتاج .

الأميرة : خذيه إذن ، وإن كتب علىّ الحرمان.

فلتكونى أنت أولى به من كل إنسان

أجل ! إننى أرى أن هذا هو الأفضل .

أحتم على أن أثنى على هذا العذاب

وألتمس فيه من جديد الخير والشفاء ؟

هكذا كان حظى منذ الطفولة ،

وأنا الآن قد تعودت عليه .

نحن لا نفقد السعادة الرائعة كل الفقدان

حين نعلم أنها لم تكن من نصيبنا .

ليونورا : أتمنى أن أراك فى يوم من الأيام

تنعمين بالسعادة التى تستحقينها .

الأميرة : اليونورا ! سعادة ؟ ولكن أين هو السعيد ؟

ربما استطعت أن أقول عن شقيقى إنه سعيد ،

فقلبه الكبير يتحمل صروف القدر وهو صبور ؛

غير أنه لم ينل أبدا ما هو به جدير .

هل شقيقتى التى تعيش فى أوربينو سعيدة (١) ؟
هذه المرأة الجميلة ، هذا القلب النبيل الكبير !
إنها لم تهب زوجها الذى يصغرها أطفالا
وهو يجلها ولا يشكو منها ،
ومع ذلك فالفرح لا يسكن بيتهما .
ماذا استفادت أمنا من حكمتها ؟ (٢)
ماذا جنت من علمها الزاخر ومن فكرها الرفيع ؟
هل استطاع أن يحميها من الخطأ الغريب ؟
لقد انتزعونا منها ، وهى الآن فى التراب ،
ولم تترك لنا نحن الصغار العزاء
الذى يشعرنا بأنها ماتت على وفاق مع الله .

ليونورا : آه لا تتطلعى إلى ما يفتقر إليه كل انسان ،
بل فكرى فيما بقى لكل واحد منا ،
فكرى فيما بقى لك يا أميرة .

الأميرة : ما بقى لى ؟ الصبر يا اليونورا !

---

(١) اشارة الى زواج شقيقتها لوكرتسيا من ولى عهد اوربينو الذى كان يصغرها بكثير . فقد فشل هذا الزواج وعادت لوكرتسيا بعد قليل الى بيت أبويها .

(٢) كانت ريناتا ، والدة الاميرة وشقيقتها لوكرتسيا ، ابنة لويس الثانى عشر ملك فرنسا ، وكانت على علاقة بالمصلح الدينى المشهور «كالفين» الذى أقام بضعة شهور فى بلاط «فرارا» واعتنقت مذهبه . وعندما اكتشف ذلك حرمت من تربية أطفالها ، واضطر ابنها بعد توليه الحكم الى الخضوع لمحكمة التفتيش وطردها من البلاد حيث ماتت فى فرنسا وطنها الاول .

تعلمت أن أمارسه من عهد الشباب .
عندما كان أصحابى وإخوتى
يستمتعون معا بالأعياد والألعاب
كان المرض يحبسنى فى حجرتى
وكان على أن أرافق الأحزان
وأن أتعلم الحرمان قبل الأوان .
شيء واحد كان يسليني فى وحدتى ،
هو متعة الغناء ؛
كنت أسلى نفسى بنفسى ،
وأهدهد الألم والشوق والأمنيات
على رنين الأنغام الهادئة .
هنالك كان يتحول الألم فى كثير من الأحيان
إلى متعة والشعور الحزين نفسه إلى انسجام .
غير أن هذه الفرحة لم تدم طويلا
فسرعان ما حرمنى منها الأطباء ،
وحكموا على بالصمت . كان على أن أعيش وأتعذب ،
وأحرم من عزائى الوحيد المسكين .

ليونورا : ولكن الكثيرين من الأصدقاء وجدوا طريقهم إليك ،
وأنت الآن صحيحة وفرحة بالحياة .

الأميرة : صحيحة ، نعم ، أعنى أننى لست مريضة ؛

وعندى من الأصدقاء من يسعدنى وفاؤهم .
كذلك كان لى صديق —

ليونورا : وما زال .

الأميرة : وسوف أفقده عن قريب .
كانت اللحظة التى رأيته فيها أول مرة
لحظة حافلة بالمعانى . كنت لم أكد أشفى من عذابى ؛
الألم والمرض لم يكونا قد فارقانى ،
عدت أنظر إلى الحياة نظرة هادئة رضية ،
وأبتهج بالنهار وبالقرب من أخواتى ،
وأذوق بلسم الأمل العذب فى ثقة ورجاء .
وجدت الشجاعة التى تجعلنى أنظر إلى المستقبل ،
وطالعتنى من على البعد وجوه صديقة .
هنالك ، يا اليونورا ، قدمت إلى شقيقتى ذلك الشاب
كان يضع يده فى يدها ، وأستطيع أن أعترف لك
بأن قلبى تشبث به ، وسوف يحتفظ به على الدوام .

ليونورا : آه يا أميرتى ، لا تأسفى على شىء !
فالنفس التى تتعرف على النبل ،
تحصل على كنز لا ينتزع منها إلى الأبد .

الأميرة : كل ماهو جميل ورائع
يخشى منه كما يخشى من اللهب

الذى يتألق ويزدهر
مادام يرسل نوره في مسكنك
وما دامت شعلته تضيء لك .
ما أرق هذا الضوء ! ومن ذا الذى يريد
أو يستطيع أن يستغنى عنه ؟
فإذا مضى يلتهم ما حوله
فما أبشع الشقاء الذى يسببه !
دعيني الآن . إنني أثرثر ، وكان يحسن بي
أن أخفي ضعفي ومرضي
عنك أنت أيضاً .

ليونورا : إن أسهل ما يبدد مرض الروح
أن يثق الإنسان بأصحابه ويبثهم شكواه .

الأميرة : إذا كانت الثقة تشفي ، فسوف أشفى سريعا ؛
فأنا أثق فيك ثقة خالصة وكاملة .
آه ياصديقتي ! لقد صممت ، فليرحل إذن !
لكنني أحس من الآن
بالألم الطويل الممل على مدى الأيام
حين يكتب على الحرمان من مصدر سعادتي .
الشمس لن تقوى أن تزيل من جفوني
صورته الجميلة المضيئة ؛

والأمل فى رؤياه لن يملأ الروح
الذى كاد يستيقظ بالشوق البهيج
ونظرتى الأولى فى حداثتنا
ستبحث عنه عبثا فى ندى الظلال .

كم كنت أحس بالرضا الجميل
حين أمضى معه أمسياتى الهادئة !

وكم كان اللقاء معه يزيد
رغبتنا فى معرفة أنفسنا وفهمها !

وفى كل يوم يرقى الوجدان
إلى سماء الانسجام الصافية .

يا للغيوم التى تسقط الآن على عينى !
روعة الشمس وبهجة الضحى ،
وسنى العالم البهى الألوان
قد غاصت الآن فى هوة الفراغ
ولفها الضباب الذى يحيط بى.
كل يوم عشته كان حياة كاملة ،
تسكت الهموم فيه وتخرس الهواجس
ويحملنا التيار كالمسافرين السعداء
على موجه الهادىء بغير مجداف .

ها هو الحاضر يظلم
والخوف من المستقبل يتسلل إلى قلبي .

ليونورا : سيعيد إليك المستقبل أصدقاءك ،
وسيحمل إليك فرحا جديداً وسعادة جديدة .

الأميرة : أود أن أحتفظ بما أملكه :
فالتغيير قد يسلي ، لكنه لا يكاد يفيد .
أبدا لم يدفعني حماس الشباب
لأن أمد يدي في وعاء الأقدار
الذي يحتشد بمصادفات العالم الغريب
طمعا في شيء يرضي قلبي المتلهف الغرير .
لقد حملني على احترامه ، ولذلك أحببته ؛
ووجدتني أحبه ، لأن حياتي معه
تحولت إلى حياة لم أعرفها من قبل.
في أول الأمر قلت لنفسي : ابتعدي عنه !
وكلما هربت منه ، وجدتني أزداد قربا
وأحس عذوبة الانجذاب وقسوة العقاب !
واختفت السعادة الصافية الحقة من حياتي ،
وجاء روح شرير فخدع أشواقي
وأبدل بالآلام سعادتي وأفراحي.

ليونورا : إن عجزت كلمات صديقة أن تحمل إليك العزاء

فسوف تستطيع القوى الخفية للعالم الجميل
ويستطيع الزمن الرحيم على غير انتظار
أن يعيدا البهجة إليك[٣].

الأميرة : حقا إن العالم جميل ! وفى أرجائه الواسعة
ينتشر الخير هنا وهناك .
آه ! لماذا يبدو لنا الخير على الدوام
كأنه لا يبتعد عنا إلا خطوة واحدة ،
ويظل الحنين إليه على مدى الحياة
يجذبنا خطوة فخطوة إلى القبر ؟
من النادر أن يدرك الناس
ما كانوا يحسبونه من نصيبهم
ومن النادر أن يحتفظوا طويلا
مما استطاعت اليد السعيدة أن تمسك به !
السعادة التى لم تكد تهب نفسها لنا تفلت منا
وأيدينا تتخلى عما تشبثت به فى نهم .
السعادة موجودة ، لكننا نجهلها ؛
أو نحن نعرفها ، ولكننا لا نعرف كيف نقدرها .

المشهد الثالث

ليونورا : (وحدها) أيها القلب النبيل الجميل، كم أرثى لك!
ويا للقدر الحزين الذى نزل بروحها السامى!
آه! إنها تفقده، وتفكرين أنت فى أن
تكسبيه؟

أمن الضرورى حقا أن يبتعد؟
أم تراك تدبرين هذا الرحيل كى تستحوذى
على القلب والمواهب التى اقتسمتها حتى الآن
مع غيرك، وما كانت القسمة عادلة؟
أمن الأمانة أن تسلكى هذا السلوك؟
أليست لديك الثروة التى تكفيك؟ هل
يعوزك شىء؟

عندك الزوج والولد والغنى، ولديك
المركز والجمال،

تملكين هذا كله، وتطمعين أن تضيفيه إلى
ما تملكين؟

أتحبينه ؟ لماذا يشق عليك إذن أن تزهدى
فيـه ؟
تستطيعين أن تصارحى نفسك ــ فما أجمل
أن ترى صورتك
منعكسة على روحه الجميل !
ألا تتضاعف سعادتك وتزداد روعة
حين ترفعك أشعاره فوق السحاب ؟
هنالك تكونين جديرة بالحسد ! ولاتقنعين
بما يحلم به كثيرون سواك
بل يفرحك أن تبهرى عيون الجميع !
وينادى الوطن باسمك ، ويتطلع إليك ،
وتلك هى ذروة السعادة والهناء :
أتكون « لاورا » (١) هى الاسم الوحيد
الذى تترنم به شفاه المحبين ؟
وهل كان من حق « بتراركا » وحده
أن يرفع الجميلة المجهولة إلى السماء ؟
أين الذى يستطيع أن يقارن نفسه بصديقى ؟
إذا كان العالم يكرمه اليوم

---

(١) هو اسم المحبوبة التى يتغنى بهـا الشـاعر الايطـالى « بترارکا » (١٣٠٤ ـ ١٣٧٤) في اغانيه ، وان لم يذكر اسمها أبدا فى أشعاره.

فسوف تهتف باسمه الأجيال القادمة .
ما أجمل أن تعيشى بجانبه
فى هذا المجد الرائع !
وتمضى معه إلى المستقبل
بخطى خفيفة مجنحة !
لا الزمن عندئذ ولا الشيخوخة
تستطيع أن تنال منك
ولا الصيحات الوقحة
التى تتقاذفها أمواج النجاح :
إن أشعاره تخلد ما من طبعه الفناء
وسوف تظلين جميلة وسعيدة
حين تكون دورة الحياة
قد جذبتك معها من زمن بعيد .
يجب أن يكون لك ،
ولن تسلبى صديقتك شيئا ،
فعاطفتها نحو الرجل النبيل
لا تختلف عن بقية عواطفها .
إن نورها كضوء القمر الشاحب
الذى لا يكاد يكشف للمسافر
طريقه فى عتمة الليل :

وهى لا تنشر الدفء حولها
ولا تسكب الفرح والبهجة بالحياة .
ستكون سعيدة حين تعلم
أنه على البعد سعيد ،
كما كانت تفعل حين تراه كل يوم .
ثم إننى لا أريد أن أنفى نفسى
أو أنفى صديقى عنها أو عن هذا البلاط :
بل سأعود مرة أخرى وأحضره معى .
ليكن الأمر كذلك ! — ها هو ذا الصديق الغليظ .
لنر إن كنا سنستطيع ترويضه !

المشهد الرابع

(ليونورا – أنطونيو)

ليونورا : بالحرب جئتنا لا بالسلام ،
وكأنك قادم من معسكر أو معركة
حيث تحكم القوة ويحسم الذراع ،
لا من روما حيث ترفع الحكمة الخفية
يدها لتباركِ عالما تراه
يركع عند قدميها ويطيعها عن طيب خاطر .

أنطونيو : لابد لى ، ياصديقتى الجميلة ، أن أقبل العتاب
لكننى لن أبحث بعيداً عن وجه للاعتذار .
من الخطر على الإنسان أن يضطر طويلا
إلى الظهور فى مظهر الحكمة والاعتدال .
فهناك روح شرير يقف إلى جانبنا ويترصدنا
ويصر على طلب الضحية من حين إلى حين .
ويشاء سوء الحظ فى هذه المرة
أن أقدم له الضحية على حساب الأصدقاء .

ليونورا : لقد عنيت طويلا بشئون الغرباء
وبذلت الجهود فى كسب رضاهم ،
والآن بعد أن عدت إلى الأصدقاء
تسيء فهمهم ونجادلهم كأنهم غرباء .

أنطونيو : هنا ، ياصديقتى العزيزة ، يكمن الخطر !
فالإنسان يتحكم فى نفسه مع الغرباء ،
ويظل متيقظا ،وهدفه أن يرضيهم لكى يخدموه
أما مع الأصدقاء فيترك نفسه على سجيتها ،
ويطمئن إلى حبهم فيبيح لنفسه
أن يبدى نزوة أو يطلق لعواطفه العنان
وهكذا يكون أول من نجرح شعورهم
هم أكثر من نكن لهم الحب .

ليونورا : بهذه الخواطر الهادئة يا صديقى العزيز
يسعدنى أن ألقاك كما عهدتك من جديد.

أنطونيو : نعم يؤلمنى – وهذا ما أود أن أعترف به –
أن أكون اليوم قد فقدت الاعتدال .
ولكن صارحينى ، ألا يشعر الرجل الذى يعود
من عمله الشاق مجهود الجبين
ويطمع أن يلتمس الراحة فى آخر المساء
فى الظل الحبيب كى يتأهب لعمل جديد ،

ثم يجد إنسانا خالى البال
يتمدد فى الظل على هواه —
ألا يحس عندئذ بعاطفة
بشرية تثور فى صدره ؟

ليونورا : إذا كان إنسانا بحق فسوف يسعده
أن يقتسم الظل مع رجل آخر
يجعل الراحة حلوة والعمل خفيفا
بحديثه العذب وأنغامه الرقيقة .
الشجرة كبيرة يا صديقى والظل كريم
ولا حاجة بأحد أن يزحزح غيره .

أنطونيو : لا نريد يا ليونورا أن نلعب بالأمثال
كما نلعب بالكرة من يد إلى يد ،
فكم فى هذا العالم من أشياء
نحب لغيرنا أن يفوز بها كما نحب أن نشاركه فيها .
على أن هناك كنزاً لا نحب أن يفوز به
إلا من يستحقه ،
وكنزاً يعز علينا أن يشاركنا فيه
إنسان مهما ارتفعت مكانته —
فإذا سألتنى عن هذين الكنزين
قلت هما إكليل الغار والحظوة عند النساء .

ليونورا : أيكون الإكليل الذى توج جبين الشاب
قد أهان الرجل الجاد ؟ أكان فى استطاعتك
أن تجد لجهوده وشعره البديع مكافأة أكثر تواضعا ؟
ذلك لأن الفضل الذى يسمو فوق العالم الأرضى
ويرف فى الهواء فلا يسحر أرواحنا
إلا بأنغامه وصوره اللطيفة
يستحق كذلك أن يكافأ
بصورة جميلة أو رمز لطيف.
وإذا كان هو نفسه لا يلمس الأرض
فإن مكافأته السامية لا تكاد تلمس جبينه .
إن الغصن اليابس هو الهدية
التى تقدمها له العواطف اليابسة
التى يحس بها المعجبون نحوه
لكى تتخفف بأيسر وسيلة من دينها له .
أيمكنك أن تحسد تمثال الشهيد
على الهالة الذهبية التى تحيط برأسه الصلعاء ؟
أينما بدا لك إكليل الغار فهو بغير جدال
علامة العذاب قبل أن يكون علامة الفرح .

أنطونيو : أتريدين أن أتعلم من فمك الرقيق
كيف أحتقر كل ما على الأرض من غرور ؟

ليونورا : لست بالطبع فى حاجة إلى أن أعلمك
كيف تقدر كل شيء بميزانه الصحيح .
ولكن يبدو أن الحكيم يحتاج
من حين إلى حين كغيره من الناس
أن يريه الإنسان النعم التى يملكها
ويعرضها عليه فى ضوئها الصحيح .
أنت يا صديقى النبيل لن يغريك الطموح
بالسعى وراء أوهام الحظوة والشرف.
إن الخدمات التى تعرف كيف تربط بها
بينك وبين الأمير وبين الأصدقاء
هى خدمات واقعية وحية ،
ولذلك ينبغى أن تكون مكافأتك عليها
مكافأة من الواقع والحياة نفسها .
إن إكليل الغار الذى يليق بك هو ثقة الأمير ،
وهى العبء الجميل الذى يستقر
على كتفيك كحمل خفيف ؛
وسمعتك هى الدليل
على ثقة الجميع فيك .
أنطونيو : ألا تقولين شيئا عن الحظوة عند النساء ؟
أم تريدين أن تصورى لى أن من السهل الحرمان منها ؟

ليونورا : لتتصور ما تشاء . فأنت لست محروما منها ،
ومن السهل عليك أن تحتمل هذا الحرمان
الذى لا يقوى عليه صديقنا الطيب .
قل لى : إن أرادت امرأة أن ترعاك على طريقتها
وأن تهب نفسها لك :
فهل يمكنها أن تجد فرصة للنجاح ؟
كل شىء لديك نظام وأمان ،
إنك تهتم بنفسك كما تهتم بغيرك ،
وتملك دائما ما يود الإنسان أن يعطيك إياه
أما هو فيحرك فينا طبيعة النساء ؛
فهناك ألف شىء صغير ينقصه
ويسعد كل امرأة أن تقدمه إليه ؛
إنه يحب أن يلبس الرداء من الكتان الجميل
أو يرتدى الثوب من الحرير المشغول .
وهو يحب أن يتزين ، بل إنه لا يحتمل
القماش الخشن الذى يدل على الخدم والرقيق .
ولا يرضى بشىء لا يجتمع فيه
الأناقة والجودة والنبل والجمال :
ومع ذلك يعجزه أن يحصل على هذا ،
وإن حصل عليه فشل فى المحافظة عليه ؛

ودائما ما نراه فى حاجة إلى المال والنظام .
يترك قطعة من ملابسه هنا ، وقطعة أخرى هناك
وما من مرة عاد من سفر
إلا وقد ضيع ثلث حاجاته ،
وأسرع الخادم بسرقته .
هكذا يا أنطونيو يظل الإنسان
فى قلق عليه طول العام .

أنطونيو : وهذا القلق يجعله أعز وأحب .
ما أسعده من شاب تحسب عيوبه فضائل ،
ويتاح له فى سن الرجولة أن يمثل دور الغلام ،
ويجعل من ضعفه الرقيق ذريعة للمجد والافتخار !
يجب أن تعذرينى يا صديقتى الجميلة ،
إذا كنت أعبر عن نفسى بشىء من المرارة .
إنك لا تقولين كل شىء ، بل تسكتين
عما يتجرأ عليه ، ولا تقولين
إنه أخبث بكثير مما يتصور الإنسان .
إنه يفتخر بإشعال نارين !
ويربط عقدة هنا ويحلها هناك
ويكسب بمثل هذه الألاعيب أمثال هذه القلوب !

أيمكن أن يصدق الإنسان هذا ؟

ليونورا : حسن ! إن هذا نفسه يكفى لإثبات
أن المحبة وحدها هى التى تحيي القلوب .
وإذا بادلنا الحب بالحب ، ألا نكون
قد كافأنا القلب الجميل مكافأة ضنينة ،
وهو الذى نسى نفسه وعاش فى حلم جميل
واهباً حياته كلها لأصدقائه ؟

أنطونيو : دللنه وزدن فى تدليله ،
إجعلن من أنانيته حباً ،
أهمّن كل الأصدقاء الذين وهبوا نفوسهم الوفية لكُن ،
قدمن للمغرور الطاعة والولاء ،
حطمن روابط الثقة التى كانت
تؤلف بيننا فى وئام جميل !

ليونورا : لسنا متحيزات بالقدر الذى تظن ؛
فكثيراً ما ننبه صديقنا وننهاه ؛
ونسعى لتربية وجدانه بحيث يستطيع
أن يسعد نفسه ويقدم السعادة لسواه .
أما العيوب التى تأخذها عليه
فهى كذلك لا تخفى علينا .

أنطونيو : ومع ذلك فكثيراً ما تمدحن ما يستوجب الملام .

أنا أعرفه من زمن طويل ،
وإن من السهل التعرف عليه ،
لأنه من الغرور بحيث لا يخفى نفسه .
أحياناً يغوص فى نفسه ، وكأن العالم كله
قد استقر فى صدره ، أو كأنه اكتفى بعالمه
فتلاشى عنده كل شىء من حوله .
إنه عندئذ يتغاضى ويزهد ،
ويطرح كل شىء كى يعكف على نفسه —
وكما يتفجر اللغم فجأة من شرارة غير منتظرة
كذلك يتفجر فرحه أو حزنه أو غضبه أو نزوته :
هنالك يبغى أن يضم كل شىء ، ويحوز كل شىء ،(١)
وهنالك يطالب بأن يتحقق كل ما كان يحلم به ؛
وأن يتولد فى لحظة واحدة
ما يحتاج إلى سنوات عديدة ،
ويحل فى طرفة عين ،

---

(١) يشهد هذا البيت والأبيات التالية له على أن مشكلة « تاسو » قريبة من مشكلة «فاوست» . فكلاهما يحس بما يسميه «شيلر» فى تفسيره للمسرحية بالازدواج أو بما تسميه الفلسفة المثالية الألمانية على لسان هيجل بالاغتراب . ولقد عبر «فاوست» عن ذلك فى أبيات مشهورة يقول فيها : نفسان آه تسكنان صدرى ، تود الواحدة لو تنفصل عن الأخرى ... الخ .. ففى تاسو وفاوست شخصيتان تتشبث احداهما كالدودة بالأرض ، وتنزع الأخرى الى سماء الحقيقة والمثل الأعلى .

ما لا تحله الجهود فى أعوام .
إنه يطالب نفسه بالمستحيل ،
لكى يبيح لنفسه أن يطالب به غيره .
ويريد أن يضم عقله
من كل شىء طرفيه البعيدين ؛
قد لا يدرك ذلك واحد من المليون ،
وما هو فى الحقيقة ذلك الواحد .
وهكذا يعود إلى الانطواء على نفسه ،
بغير أن يُصلح من أمره شيئاً .

ليونورا : إنه لا يؤذى غيره ، بل يؤذى نفسه .

أنطونيو : ومع ذلك فهو يجرح إحساس الآخرين ..
هل تنكرين أنه حين يستولى عليه الانفعال
يتجرأ على إهانة الأمير والأميرة نفسها
ويتطاول على أى إنسان ؟
صحيح أنه يفعل ذلك فى لحظة واحدة
ولكن هذه اللحظة تذهب وتعود .
وهو عاجز عن التحكم فى فمه
عجزه عن التحكم فى قلبه .

ليونورا : أظن أنه إذا ابتعد عن هنا فترة قصيرة
فربما ينفعه ذلك وينفع الآخرين .

أنطونيو : لست أدرى . فقد يفيد هذا وقد لا يفيد .
ومع ذلك فليس هذا هو أوان التفكير فيه .
لا أريد أن يقع الخطأ على كتفى ؛
فقد يبدو أنى أنفيه ، وأنا فى الحقيقية لا أنفيه .
إنى لا أمانع فى بقائه فى البلاط ؛
وإذا أراد أن يتصالح معى
وإذا استطاع أن يستمع لنصيحتى
فقد نستطيع أن نحتمل الحياة معا .

ليونورا : أنت ترجو إذن أن تؤثر على الوجدان
الذى اعتقدت منذ لحظة ألاَّ أمل فيه .

أنطونيو : نحن لا نقطع الرجاء ،
فالأمل دائماً أفضل من اليأس .
ومن ذا الذى يضمن ما قد يحدث ؟
إنه يتمتع بتقدير الأمير .
ولابد أن نحتفظ به بيننا .
وإذا لم تفلح جهودنا فى تقويمه ،
فليس هو الوحيد الذى نصبر عليه .

ليونورا : لم أكن أتصور أنك تستطيع

أن تتجرد من التحيز والانفعال .
لقد تحولت تحولا سريعاً .

أنطونيو : لعل مزية السن الوحيدة
أنه ، وإن لم يجنبنا الخطأ ،
فهو يجعلنا أقدر على التحكم السريع فى نفوسنا .
لقد بذلت جهدك فى أول الأمر
لكى توفقى بينى وبين صديقك .
وأنا الآن أطلب هذا "بدورى" منك .
إفعلى ما تستطيعين حتى يعود إلى رشده
ويرجع كل شىء إلى حاله القديم .
سأذهب بنفسى إليه إذا عرفت منك
أنه قد استعاد هدوءه ،
وإذا رأيت أن زيارتى له
لن تزيد الحالة سوءاً .
ولكن افعلى الآن ما تريدين أن تفعليه ؛
فسوف يعود ألفونس مساء اليوم ، وسأكون فى صحبته .
والآن الوداع !

المشهد الخامس

ليونورا : (وحدها) لم نتفاهم ، يا صديقى العزيز ، فى هذه
المرة على رأى ،
فمصلحتى لا تسير اليوم يداً فى يد مع مصلحتك .
سأحاول أن أستغل الساعات الباقية
وأكسب تاسو إلى جانبى .
الوقت قد أزف !

الفصل الرابع

حجرة

المشهد الأول

تاسو : (وحده) هل صحوت من حلم
وتخلى عنك الوهم الجميل ؟
أم هبط عليك النوم فى يوم رائع البهجة
ولم يزل يأسر روحك ويخيفها بقيوده الثقال ؟
نعم ، أنت تحلم فى اليقظة .
أين ذهبت الساعات التى كانت
تلف حول جبهتك أكاليل الزهور ؟
وأين الأيام التى كانت روحك فيها
تعبر زرقة السماء على جناح الشوق الطليق ؟
ومع ذلك فما زلت تعيش وتحس بوجودك ،
تحس بوجودك ولا تدرى إن كنت تعيش .
أهو خطأى ، أم خطأ إنسان غيرى

أن أحيا هنا حياة المذنبين ؟
هل اقترفت جريمة ، حتى يحق على العذاب ؟
أليس فى خطأى كله فضل يحسب لى ؟
رأيته فامتلأ قلبى بالأمل
وغرتنى الإرادة الطيبة ،
فظننت أن من يحمل وجه إنسان
لابد أن ينطوى على روح إنسان .
إندفعت إليه مفتوح الذراعين
فوجدت مكان القلب القفل والمزلاج .
آه ! لقد كنت دبرت الطريقة التى أستقبل بها
ذلك الرجل الذى كنت أرتاب فيه من زمن طويل !
لتكن تجربتك مع ذلك ما تكون
فعليك أن تتمسك بهذا اليقين :
لقد رأيتها ! لقد وقفت أمامى !
وتكلمت إلى ، وسمعت كلامها !
نظرتها ، وصوتها ، ومعنى كلامها الرقيق
أملكها إلى الأبد ، ولا يسلبها منى الزمان
ولا ينتزعها القدر ولا الحظ الغدار !
وإذا كانت روحى قد سارعت بالتحليق فى الأعالى

وإذا كنت قد رعيت فى قلبى اللهيب الذى يأكلنى الآن
فلست نادماً على هذا ، ولو دمر إلى الأبد حياتى .
وهبت لها نفسى وأطعت الإشارة
التى دعتنى إلى الهلاك وأنا فرحان .
ليكن ! فقد أثبت أننى جدير
بالثقة الغالية التى تعزينى
حتى فى هذه الساعة التى تنفتح لى فيها
البوابة السوداء التى تتوالى منها الأحزان .

أجل ، لقد تم كل شىء ! وها هى شمس رضاه الجميل
تأفل فجأة وتغيب ؛
والأمير يحرمنى من نظرته الحنون
ويتركنى تائهاً على طريق ضيق كئيب .

ها هى الطيور البشعة تحوم حولى ،
والموكب الملعون الذى يتبع الليل العجوز يدور حول رأسى .
إلى أين ، إلى أين أحرك خطاى
لأفر من هذه الأسراب الكريهة التى تحاصرنى
وأنجو من الهاوية التى تفتح فوهتها لى ؟

المشهد الثانى

(ليونورا – تاسو)

ليونورا : ماذا جرى ؟ أى غضب يا عزيزى ،
وأى تهور دفعك إلى هذا ؟
كيف حدث ما حدث ؟
إننا جميعاً فى ذهول .
أين دماثتك وطبعك الرقيق ،
ونظرتك النافذة ، وعقلك السديد ،
الذى يجعلك تؤدى لكل إنسان حقه ،
وصبرك وجلدك الذى علمك أن تحتمل
ما يحتمله النبيل ، وما يندر أن يتعلمه المغرور
والتحكم الذكى فى الشفتين واللسان –
يا صديقى العزيز ، إنى أكاد أنكرك .

تاسو : وإذا كان كل هذا قد تبدد الآن ؟
وإذا كنت ترين الصديق الذى حسبته غنياً
يقف أمامك الآن كما يقف الشحاذ ؟

معك الحق ، فلم أعد كما كنت ،
ومع هذا فما زلت كما كنت تعرفين .
الأمر يبدو لغزاً ، ومع ذلك فلا لغز فيه .
القمر الوديع ، الذى يسعدك بالليل ،
ويسحر نوره عينيك ووجدانك
سحراً لا يقاوم ، يلوح بالنهار
سحابة شاحبة ضئيلة تطوف بالسماء .
لمعان النهار قد أخفى ضيائى
إنكم ترونني ، وتعرفونني ،
أما أنا فما عدت أعرف نفسى .

ليونورا : لست أفهم يا صديقى ما تقوله لى
على النحو الذى تقوله . أوضح لى ما تريد .
هل كدرتك إهانة الرجل الفظ
إلى الحد الذى أصبحت معه
تسىء فهم نفسك وتسىء فهمنا ؟
ضع ثقتك فى .

تاسو : لست أنا المهان ما دمت ترين
أننى عوقبت عقاب المُهين .
كان فى استطاعة السيف أن يحل الكثير
من عقد الكلام فى خفة وسهولة

غير أنى الآن سجين .
هل تعلمين – لا تفزعى يا صديقتى الرقيقة –
أن صديقك الآن فى زنزانة ؟
إن الأمير يؤدبنى كما يؤدب التلميذ .
أنا لا أحاسبه ، ولا أستطيع .

ليونورا : يبدو عليك التأثر أكثر مما ينبغى .

تاسو : هل تحسبيننى ضعيفاً وطفلا
إلى حد أن تفسد هذه الحادثة عقلى ؟
إن ما حدث لا يؤذينى فى الصميم
ولكن يؤذينى ما يعنيه بالنسبة لى .
دعى حسادى وأعدائى يفعلوا ما يشاؤن !
فالميدان خال ومتسع لهم .

ليونورا : إنك ترتاب بغير حق فى الكثيرين ،
وقد استطعت أن أقتنع بنفسى بهذا ،
وأنطونيو نفسه لا يعاديك كما تتوهم .
إن النزاع الذى حدث اليوم ...

تاسو : إننى أدعه جانباً ، وأكتفى بالنظر إلى أنطونيو
كما كان قديماً ، وكما هو الآن .
كانت تضايقنى منه دائماً حكمته الجامدة

وحبه لتمثيل دور المعلم على الدوام .
بدلا من أن يبحث إن كان عقل المستمع إليه
قد اهتدى بنفسه إلى الطريق الصحيح
تجدينه يعلمك ويعظك بأشياء
تحسين بها أفضل منه وأعمق ،
ولا يستمع إلى كلمة واحدة تقولينها
بل يسيء فهمك على الدوام .
هكذا يساء فهمك ، يساء فهمك من مغرور ،
يعتقد أنه يستطيع أن يتجاهلك بابتسامته !
أنا لم أبلغ من العمر ولا من الحكمة ما يجعلنى
أكتفى بالصبر وأرد عليه بالابتسام .
لم يكن من الممكن أن نستمر على هذه الحال ،
وكان لابد أن نتصادم فى وقت قريب أو بعيد ،
ولو تأخر الأمر لازداد سوءاً .
لست أعترف إلا بسيد واحد ، هو السيد الذى
يطعمنى ،
إننى أخضع له عن طيب خاطر ، ولست أريد سيدا
سواه .
أريد أن أكون حراً فى تفكيرى وإبداعى ،
فالعالم يضع لأفعالنا ما يكفى من القيود .

ليونورا : إنه كثيراً ما يتكلم عنك بالتقدير والاحترام .

تاسو : تريدين أن تقولى بالحيطة والاحتراس ، فى براعة وذكاء

وهذا هو الذى يغيظنى ؛ ذلك لأنه يعرف
كيف يتلاعب بالألفاظ ويتحكم فيها
بحيث يصبح الثناء على لسانه هجاء ،
وبحيث لا يجرحك شىء كما تجرحك
كلمة ثناء تخرج من فمه .

ليونورا : وددت يا صديقى لو سمعت ما يقوله عنك ،
وعن الموهبة التى آثرتك بها الطبيعة الخيرة .
إنه يحس بالتأكيد من أنت وماذا تملك
وهو يقدره كذلك حق التقدير .

تاسو : آه صدقينى ! إن الوجدان الذى لا يحب إلاَّ ذاته
لا يمكنه أن يتخلص من عذاب الحسد الخانق .
مثل هذا الرجل قد يستطيع أن يغفر لغيره
الثروة والمكانة والجاه ، لأنه يقول لنفسه :
أنت تملك هذا كله ، وتستطيع أن تملكه إن شئت
وإن أصررت وكان الحظ فى جانبك .
أما هذا الذى تمنحه الطبيعة وحدها ،

هذا الذى لا يستطيع الجهد ولا التعب أبداً أن يدركه ،
ولا الذهب أو السيف أو الذكاء أن يغتصبه ،
فذلك ما لا يمكنه أن يغتفره .
أتقولين إنه لا يحسدنى على هذه الموهبة ؟
هو الذى يظن أنه إذا أجهد عقله البليد
استطاع أن ينتزع الحظوة من ربات الفنون ؟
وإذا جمع أفكاراً من بعض الشعراء
ظن أنه قد أصبح شاعراً ؟
لا ، إنه قد يسلم لى برضاء الأمير
الذى يود لو يستطيع أن يقصره على نفسه
ولكنه لن يسلم لى بالموهبة التى أنعمت بها
ربات السماء على الشاب اليتيم المسكين .

ليونورا : آه ! ليتك ترى الأمور بوضوح كما أراها
إنك تخطىء الظن به ، فليس فى الحقيقة كما تراه .

تاسو : إن كنت أخطىء الظن به ، فما أحب هذا الخطأ
إلى نفسى !
إننى أعده ألد أعدائى ، ولن يعزينى الآن
أن أخفف من نقمتى عليه . من الحمق أن يكون
الإنسان

منصفاً فى كل شىء ؛ إن معناه أن يدمر نفسه بنفسه .
هل ينصف الناس فى معاملتهم لنا ؟ لا . لا !
إن الإنسان بكيانه المحدود
فى حاجة إلى الإحساس المزدوج بالحب والكره .
ألا يحتاج إلى الليل حاجته إلى النهار ؟
وإلى النوم كما يحتاج إلى اليقظة ؟
لا . لا بد من اليوم أن أجعل هذا الرجل
موضوعاً لكرهى العميق ؛ ولا شىء يستطيع
أن ينتزع منى لذة الإحساس بكرهه
وإساءة الظن به على مر الأيام .

ليونورا : إن كنت تريد الإصرار على هذا الرأى
فلست أدرى ، يا صديقى الغالى ،
ما الذى يدعوك إلى البقاء فى البلاط .
إنك تعلم منزلته فيه .

تاسو : وأعلم ، يا صديقتى الجميلة ، منذ عهد طويل
أنى أصبحت هنا شيئاً يمكن الاستغناء عنه .

ليونورا : لست كذلك ، ولا يمكن أبداً أن تكون !
إنك تعلم كم يحب الأمير ، وكم تحب الأميرة أن
تعيش معهما ؛

وإذا جاءت شقيقتهما التى تعيش فى أوربينو
فهى تجىء من أجل شقيقتها كما تجىء من أجلك .
إنهم جميعاً يضمرون لك الخير ،
ويثقون فيك ثقة بغير حدود .

تاسو : آه يا ليونورا ! أية ثقة هذه !
هل تحدث معى مرة بكلمة واحدة فى شئون الدولة ،
بكلمة واحدة جادة ؟
كانت كلما عرضت مسألة فى وجودى
راح يستشير فيها شقيقته وبقية الحاضرين
ولا يسألنى رأيى أبداً . إنه لا يفتأ يقول :
أنطونيو قادم ! لابد أن تبلغوا أنطونيو !
إسألوا أنطونيو !

ليونورا : أنت تتهم ، حيث ينبغى عليك أن تشكر .
إنه إن كان يحب أن يترك لك حريتك المطلقة
فذلك لأنه يكرمك بقدر ما يستطيع .

تاسو : بل يتركنى على راحتى ، لاعتقاده بأننى لا أفيد فى شىء .

ليونورا : لا يمكن أن تكون عديم الفائدة ، لأن راحتك هى مصدر قوتك .

ها أنت منذ وقت طويل ترعى الهم والضيق
فى قلبك كما يفعل الطفل المدلل الحبيب .
لقد طالما فكرت فى الأمر وعدت للتفكير فيه :
على هذه الأرض الجميلة ، التى يبدو كأن الحظ اختارها لك ،
لا يمكن أن تنمو مواهبك أو تزدهر . آه يا تاسو !
هل أشير عليك ؟ هل أجرؤ أن أقول لك ما فى نفسى ؟
إن عليك أن تبتعد !

تاسو : لا ترفق ، يا طبيبى العزيز ، بالمريض !
ناوله الدواء حتى ولو كان مراً
إسألى نفسك ، يا صديقتى الحكيمة الطيبة ،
إن كان يمكن أن يشفى !
إنى أرى كل شىء بنفسى . وا أسفاه ! لقد فات الأوان !
أستطيع أن أغفر له ، أما هو فلن يغفر لى .
وهم محتاجون إليه ، أما أنا فلا يحتاج إلى أحد .
وهو ذكى ، وأنا لست على شىء من الذكاء .
وهو يؤذينى ، وأنا لا أحب ولا أقوى على رد أذاه .
أصدقائى يتغاضون عما يجرى ، وبعيون أخرى يرونه .

إنهم لا يبدون أية مقاومة ، حين كان ينبغي عليهم
أن يكافحوه .
أتعتقدين أن على أن أذهب ؟ أنا نفسى أعتقد هذا .
الوداع إذن ! — وسوف أصبر على هذا الامتحان
لقد تخليتم عنى ، فلأجد القوة والشجاعة
التى تعيننى على أن أتخلى بدورى عنكم !

ليونورا : آه ! إن الإنسان يميز على البعد فى نقاء
ما يضل عقولنا على القرب .
ربما استطعت حينئذ
أن تعرف الحب الذى كان يحيط بك من كل جانب ،
وربما استطعت أن تقدر قيمة الوفاء
الذى يصدر عن قلوب الأصدقاء الخلصاء
وكيف أن العالم الواسع لا يغنى
عن أولئك الذين وجدوا الطريق إلى قلبك .

تاسو : هذا ما سوف نراه ! فأنا أعرف العالم منذ الشباب
وأعرف كيف يسهل عليه أن يتركنا وحيدين عاجزين
ويواصل طريقه فى غير اكتراث
كما تفعل الشمس والقمر وبقية الآلهة !

ليونورا : إذا أنصت إلى يا صديقى

فلن تكرر التجربة الحزينة أبداً .
إن كان لى أن أشير عليك
فاذهب أولا إلى فلورنسا
حيث تتلقاك صديقة أحر لقاء .
لا تقلق ! فأنا نفسى هذه الصديقة
سأرحل فى خلال أيام
لألقى زوجى هناك ، وليس شىء أحب إليه أو إلى
من أن نراك بيننا .
لن أقول لك شيئاً ، فأنت تعرف بنفسك
من هو الأمير الذى ستعيش بقربه ،
ومن هم الرجال والنساء الذين ترعاهم
هذه المدينة الجميلة بين ضلوعها .
ألا تقول شيئاً ؟ فكر فى الأمر ! وصمم على رأى !

تاسو : يجذبنى ما تعرضينه على ، ويتفق كل الاتفاق
مع الرغبة التى أكتمها فى نفسى ؛
غير أنه شىء جديد على :
أرجوك أن تتركى لى فرصة التفكير
وسوف أستقر على رأى عن قريب .

ليونورا : سأذهب وفى نفسى أجمل الآمال
من أجلك ، ومن أجلنا ، ومن أجل هذا البيت .

فكر فى الأمر ، وإذا أحسنت التفكير
فسوف يتعذر عليك أن تجد خيراً منه .

تاسو : شيء واحد ، يا صديقتى العزيزة !
خبريني ، ما هو إحساس الأميرة نحوى ؟
هل غضبت على ؟ ماذا قالت ؟
هل اشتدت فى لومى ؟ كونى صريحة معى .

ليونورا : كان من السهل عليها أن تلتمس العذر لك ، لأنها تعرفك .

تاسو : هل فقدت تقديرها لى ؟ تكلمى بغير تملق .

ليونورا : رضا النساء لا يفقده الإنسان بهذه السهولة .

تاسو : وإذا رحلت ، فهل تتركنى أمضى وهى راضية ؟

ليونورا : لا شك فى هذا ، إذا عرفت أن الرحيل فى صالحك .

تاسو : ألن أفقد عطف الأمير ؟

ليونورا : تستطيع أن تطمئن إلى كرمه .

تاسو : وهل نترك الأميرة فى هذه الوحدة ؟
أنت سترحلين ، وأنا على قلة شأنى
أعرف مع ذلك أن لى مكانة فى عينيها .

ليونورا : إننا نظل ننعم بصحبة الصديق

ما دمنا نعلم أنه على البعد سعيد .
سيسير كل شىء على ما يرام ، فأنا أراك سعيداً
وان ترحل ساخطاً عن هذا المكان .
الأمير هو الذى أمر بهذا ، وأنطونيو سيسعى إليك .
وهو يلوم نفسه على المرارة التى جرح بها إحساسك .
أتوسل إليك أن تستقبله بغير جفاء .

تاسو : إننى أستطيع أن أواجهه فى كل الأحوال .

ليونورا : ولتوفقنى السماء ، يا صديقى العزيز ،
أن أفتح عينيك قبل أن ترحل ،
لأريك أنه ليس فى الوطن كله إنسان
يضطهدك أو يكرهك أو يتآمر عليك !
إنك تخطىء حقاً ! وكما تؤلف الشعر لتسعد الآخرين
أراك الآن — ويا للأسف ! — تؤلف نسيجاً غريباً من الأوهام
لتؤذى به نفسك . أريد أن أفعل كل ما أستطيع
لكى أمزق هذا النسيج ، حتى تسير حراً
على طريق الحياة الجميل .
وداعاً ! وأنتظر منك رداً سعيداً .

المشهد الثالث

تاسو : (وحده) إذن فهذا هو الآن واجبى ؟

أن أعرف أنه لا أحد يكرهنى ، ولا أحد يضطهدنى ،
وأن المكر كله والدسائس الخفية كلها
إنما هى من نسيج خيالى !
أن أعترف بأنى أخطأت
وأنى أظلم كثيرين
لا يستحقون منى هذا الظلم !
وهذا فى الوقت الذى يتجلى فيه
حقى المطلق وخيانتهم الدنيئة
واضحة أمام وجه الشمس !
على أن أشعر عميق الشعور
بأن الأمير يفتح لى صدره ويهبنى رضاه
ويغدق على بدون حساب عطاياه
فى حين أن أعدائى يستغلون ضعفه
فيعكرون نظرته إلى ويقيدون بالطبع يديه !

هو لا يستطيع أن يرى أنه مخدوع
وأنا لا أستطيع أن أثبت أنهم خادعون ،
وعلى أن ألزم الصمت ، لا بل أنسحب من الميدان
لكى يخدع فى هدوء
ويضللوه على هواهم !
ومن الذى يقدم لى النصيحة ؟
من الذى يلح على فى رفق وإصرار وذكاء ؟
إنها ليونورا نفسها ، ليونورا سانفيتاله
الصديقة الرقيقة ! آه . إننى أعرفك الآن !
ما الذى جعلنى أصدق شفتيها !
لم تكن أمينة حين جاءت تؤكد لى
إخلاصها ورقتها بكلماتها المعسولة !
لا ، لقد كانت وستظل خبيثة القلب ،
تتسلل بخطى خافتة بارعة لتتقرب منى .
كم من مرة خدعت نفسى بنفسى فيها !
وما خدعنى فى الحقيقة إلا الغرور .
كنت أعرفها ولكننى كنت أداهن نفسى ،
وأقول لها : هكذا تعامل غيرك ،
ولكنها معك صريحة ووفية .
الآن أراها بوضوح ، وأراها بعد فوات الأوان :

حين كنت أتمتع بالحظوة عند الأمير ، كانت تتقرب مني
وتبدي رقتها لي ، أنا المحظوظ —
وما كدت أهوى ، حتى أدارت ظهرها
عندما تنكر الحظ بدوره لي .
وها هي تقبل الآن ، أداة في يد عدوي
تتسلل نحوي وتصفر أنغامها الساحرة كالحية الصغيرة
كم كانت تبدو رائعة ! أروع من كل وقت مضى !
وما أعذب كل كلمة كانت تخرج من شفتيها !
ومع ذلك فلم يستطع النفاق طويلا
أن يخفي عني نيتها الخبيثة . على جبهتها ،
كنت أقرأ بوضوح عكس ما كانت تقوله شفتاها .
فسرعان ما أحس بمن يبحث عن الطريق إلى قلبي
دون أن يكون صادقاً من قلبه .
أعلي أن أبتعد ؟ أن أذهب إلى فلورنسا بأسرع ما أستطيع ؟
ولكن لماذا أذهب إلى فلورنسا ؟ إنني أرى الأمر بوضوح .
هناك يحكم بيت الميديشي الجديد ،

صحيح أنهم لا يجهرون بالعداء «لفرارا»
ولكن الحسد الصامت يفرق
بين القلوب النبيلة بيده الباردة .
وإذا حدث أن تلقيت من أولئك النبلاء
ما يدل على رضاهم السامى على
— وذلك ما أتوقعه عن يقين —
فما أسرع ما سيحاول رجل البلاط
أن يثير الشك فى ولائى وعرفانى
وسهل أن يتم له هذا .
نعم ، أريد أن أذهب ، ولكن لا كما تريدون ؛
أريد أن أمضى بعيداً ، وأبعد مما تتصورون .
وماذا أفعل هنا ؟ من الذى يحرص على ؟
آه ! لقد فهمت كل كلمة تصيدتها من شفتى ليونورا !
رحت أحدس بمعناها ، مقطعاً بعد مقطع
وأعرف الآن تماماً ، ما تفكر الأميرة فيه .
أجل ! أجل ! كل هذا حق ، فلا تيأس !
«ستتركنى أرحل وهى راضية
إذا عرفت أن ذلك فى صالحى»
لو أنها أحست بعاطفة فى قلبها

ستدمر سعادتي وتدمرني !
الموت أحب إليّ من هذه اليد
التي تتخلى عني في برود وجمود .
سأرحل ! فحاذر الآن أن تنخدع
بالصداقة والطيبة . ولن يقوى أحد على خداعك
ما دمت لا تخدع نفسك .

المشهد الرابع

«أنطونيو — تاسو»

أنطونيو : ها أنا يا تاسو قد جئت لأتكلم معك
إن أردت واستطعت أن تستمع إلىّ فى هدوء .

تاسو : إن الفعل ، كما تعلم ، محرم على ؛
فخليق بى الآن أن أنتظر وأسمع ؛

أنطونيو : إننى ألقاك هادئاً ، كما كنت أتمنى
وأحب أن أتحدث إليك بقلب مفتوح .
وأبدأ فأنزع عنك باسم الأمير
القيد الواهى الذى بدا أنه يقيدك .

تاسو : التعسف هو الذى قيدنى ، وهو الذى يفك الآن قيدى .
إننى أقبل ما تعرضه على ، ولن أطالب بالتقاضى ؛

أنطونيو : إذن دعنى أتكلم الآن عن نفسى
ربما جرحتك كلماتى
جرحا كان أعمق وأبعد من أن أحس به .
كنت فى ذلك الحين معذب القلب بالأحزان .

على أن كلمة واحدة مهينة
لم تفلت من شفتى بلا تدبر :
ولن تجد فيها كرجل نبيل ما تثأر له
ولن تبخل كإنسان عليها بالغفران .

تاسو : لن أبحث الآن إن كانت الإهانة
أو كان السب أشد إيذاء ؟
فتلك تنفذ إلى النخاع ، وهذا يخدش الجلد .
إن سهم السب يعود فيصيب
من ظن أنه أصاب غيره بالجراح ؛
والسيف الذى يجد اليد التى تحسن تسديده
من السهل أن يرضى رأى الآخرين —
أما القلب المهان فمن العسير أن يجد الشفاء .

أنطونيو : الآن أرى من واجبى ، أن ألح عليك وأقول :
لا ترجع إلى الوراء ، وحقق رغبتى
التى يريدها منك كذلك الأمير .

تاسو : أنا أعرف واجبى ، وسوف أطيع .
ولقد صفحت ، بقدر ما أستطيع .
إن الشعراء يحكون لنا عن رمح
يستطيع بملمسه الرفيق

أن يشفى الجرح الذى أصابه(١)
إن لسان الإنسان يملك هذه القدرة ؛
ولن أجعل الحقد يغلق دونها فؤادى .

أنطونيو : أشكرك وأرجوك أن تضع رغبتى
في خدمتك على الفور موضع الاختبار .
قل لى : هل أستطيع أن أؤدى لك خدمة ؟
إننى أرحب بهذا كل الترحيب .

تاسو : إنك تقدم لى ماكنت أتمناه .
لقد أعدت إلى حريتى وأرجوك
أن تعطينى القدرة على استخدامها .

أنطونيو : ماذا تقصد ؟ أوضح ما تقول .

تاسو : أنت تعلم أننى انتهيت من قصيدتى
ولكنها لا تزال بعيدة عن الكمال .
لقد سلمتها اليوم للأمير
وكنت أرجو أن أشفعها بالتماس .
إن عددا كبيراً من أصدقائى
مجتمعون اليوم فى روما

---

(١) اشارة الى احدى الخرافات الاغريقية التى تقول ان الملك تليفوس الذى اصابه رمح اخيل فجرحه لا يمكن ان يشفى حتى يلمسه هذا الرمح مرة أخرى .

وقد كتبوا إلى كل على حدة ،
برأيهم فى بعض الفقرات ،
استطعت أن أفيد بكثير من هذه الآراء ،
ولكن لا يزال الكثير فيما يبدو لى بحاجة إلى التفكير.
ولست أحب أن أغير فى مواضع كثيرة
قبل أن ألقى منهم مزيداً من الإقناع.
ولابد من وجودى لأحل عقده بالحديث.
فكرت اليوم أن أطلب هذا من الأمير :
غير أننى لم أجد الفرصة سانحة ؛
وليس من حتى الآن أن أتجرأ بالسؤال
لهذا أرجو أن أحصل على هذه الإجازة عن طريقك.

أنطونيو : لست أرى من العقل أن تبتعد الآن
بعد أن أنجزت عملك الذى يرضى عنك الأميرة
والأمير.
إن يوم الرضا كيوم الحصاد
إذا نضجت الثمار كان على الإنسان أن يعمل.
ولو ابتعدت الآن فلن تكسب شيئا
بل ربما خسرت ما كنت قد كسبت.
إن الحاضر إلهة قوية وقادرة
فتعلم أن تعرف تأثيرها ، وابق هنا !

تاسو : لست أخاف شيئا ، فألفونس نبيل ،
وقد كان دائما كريما معى ؛
وما أرجوه منه أحب أن أناله من قلبه فحسب
ولست أحب أن أتسول رضاه ؛
لا أريد أن آخذ منه شيئا
قد يندم لأنه أعطانى إياه .

أنطونيو : لا تطلب منه إذن أن يسمح لك بالرحيل ؛
إنه لن يفعل ذلك إلا كارها
وأخشى ألا يفعله على الإطلاق .

تاسو : سيرضى إذا عرف الإنسان كيف يرجوه
ولن يستطيع هذا ، إذا شئت ، سواك .

أنطونيو : ولكن قل لى : ماهى الحجج التى أقدمها إليه ؟

تاسو : دع كل مقطع من قصيدتى يعبر لك عنها !
إن ماأردته جدير بالحمد والثناء
وإن ظل الهدف أبعد من أن تدركه قواى .
إننى لم أبخل عليها بالجهد والعناء .
كم من نهار جميل مشمس ،
وكم من ليلة عميقة هادئة
وهبتها لهذه الأغنية التقية .

كنت أرجو ، على تواضع حالى ، أن أقترب
من أولئك المعلمين الكبار القدماء ،
وتجاسرت أن أوقظ المعاصرين الأحياء
من نومهم الطويل لينهضوا بأعمال البطولة
ويشاركوا مع الجيش المسيحى العظيم
فى أمجاد الحرب المقدسة وأخطارها .
فإن استطاع نشيدى أن يوقظ أفضل الرجال
فلابد كذلك أن يكون جديراً بهم .
إننى أدين لألفونس بما فعلت ؛
وأحب الآن أن أشكره على إتمامه .

أنطونيو : ولكن الأمير هنا ، ومعه كثيرون
يستطيعون أن يهدوك كما يفعل أهل روما .
أتمم قصيدك هنا ، فهنا المكان الذى يلائمه .
فإن أردت التأثير على الناس ، فأسرع بعدها إلى روما .

تاسو : كان ألفونس أول من بعث فىَّ الحماس للقصيد ،
وإذا لم أجد حكما سواه : فسوف أستمع يقينا إلى نصيحته .
أما رأيك ، ورأى الحكماء الذين جمعهم البلاط
فتأكد من أننى سأعرف قدره وقيمته .
عليكم أن تقرروا إن كان أصدقائى

لم ينجحوا فى إقناعي بالسفر إلى روما .
ولكن لابد لى أن أراهم .
إن جونزاجا قد ألف المحكمة التى ينبغى علىَّ
أن أقدم نفسى إليها ، ولست أطيق الانتظار .
فلا مينيودى نوبيلى ، أنجيليودا بارجا ،
أنطونيانو وسبيرون سبيرونى !(١)
لا شك أنك تعرفهم جميعا .
يا لها من أسماء رائعة ! تبعث الثقة
كما تشيع الخوف فى روحى
التى ستخضع لرأيهم عن طيب خاطر .

انطونيو : أنت لا تفكر إلا فى نفسك وتنسى الأمير .
أؤكد لك أنه لن يوافق على رحيلك ؛
وإذا فعل ، فسيكون ذلك بغير رضاه .
فهل تطلب منه مالا يحب أن يعطيه ؟
وهل أمد يدى للتوسط فى شىء
لا أستطيع أنا نفسى أن أحبذه ؟

تاسو : أترفض أن تقدم لى الخدمة الأولى
التى أريد أن أختبر بها الصداقة التى تعرضها علىَّ ؟

---

(١) أسماء شعراء ايطاليين عرفهم جوته من كتاب سيراسى « مؤرخ حياة تاسو » الذى أشرت اليه فى المقدمة .

أنطونيو : إن الصداقة الحقة هى التى تعرف
كيف ترفض فى الوقت المناسب ،
وكم يجلب الحب من أضرار
كلما استجاب لنزوة الصديق بدلا من مصلحته .
يبدو لى أنك فى هذه اللحظة
تعد ما تتلهف عليه خيراً ،
وتريد أن تحقق فى طرفة عين
ما تشتاق إليه نفسك .
إن من يخطىء ويضل الطريق
يضع العنف والجموح
مكان الحقيقة والقوة
اللتين يفتقر إليهما .
إن من واجبي ، بقدر ما أستطيع
أن أخفف بالاعتدال من الغلواء
التى تؤذيك وتجنى عليك .

تاسو : طغيان الصداقة هذا ، أعرفه من وقت طويل ،
وهو عندى أشد ألوان الطغيان .
إن تفكيرك يختلف عن تفكيرى
وهذا ما يجعلك تعتقد بأنه هو التفكير الصحيح .
إننى أعترف بأنك تريد الخير لى ؛

فلا تطلب منى أن أسير على طريقك كى أفتش عنه :
أنطونيو : وهل تطلب منى أن أسعى فى برود إلى أذاك
وأضرك عن اقتناع كامل وواضح ؟
تاسو : أحب أن أخلصك من هذا الهم !
فلن يصدنى عن هدفى شىء مما تقول .
لقد أعدت إلىّ حريتى ، وهذا الباب
الذى يؤدى إلى الأمير مفتوح أمامى .
أنت أوأنا ! إننى أترك لك الخيار .
الأمير ينوى السفر . وليس هناك لحظة نضيعها
فى الانتظار .
إختر على وجه السرعة ! فاذا لم تذهب أنت ،—
فسأذهب أنا إليه ، وليكن ما يكون .
أنطونيو : دعنى أطلب إليك أن تتريث قليلا ،
وتنتظر على الأقل حتى يعود الأمير ،
لا تذهب اليوم إليه !
تاسو : بل سأذهب إليه الساعة ، إن استطعت !
إن نعلىّ يلتهبان فوق هذا الرخام ،
ولن تستريح روحى حتى يثور الغبار
ورائى على طريق الحرية . أتوسل إليك !
أنت ترى كم يتعذر علىّ فى هذه اللحظة

أن أحسن الحديث مع مولاى ،
أنت ترى — وكيف لى أن أخفى هذا ؟ —
أننى لا أستطيع فى هذه اللحظة أن أتحكم فى نفسى
ولن تستطيع قوة على الأرض أن تسيطر علىّ .
الأغلال وحدها هى التى تقيدنى الآن !
ليس ألفونس طاغية ، فقد أعاد إلى حريتى .
وما أحب إلى نفسى أن أطيع أوامره
لولا أننى اليوم لا أستطيع !
دعونى أتمتع بحريتى اليوم فحسب
حتى أعود إلى نفسى ! وسوف لا أتأخر عن أداء
واجبى .

أنطونيو : أنت تثير الحيرة فى نفسى . ماذا أفعل ؟
أرى الآن أن الخطأ يعدى .

تاسو : إن أردت منى أن أصدقك ، إن أردت حقا أن تعيننى
فافعل ما أطلبه منك وما تستطيع
عندئذ يوافق الأمير على سفرى
دون أن أفقد عونه أو رضاه .
وسأحفظ لك هذا الجميل بالشكر والعرفان .
أما إن كنت تطوى فى صدرك حقدا قديما ،
أو كنت تريد أن تنفينى من هذا البلاط

وتجنى على سعادتى إلى الأبد
وتلقينى إلى العالم الشاسع بغير معين
فابق على رأيك وقف فى طريقى !

أنطونيو : مادمت يا تاسو تريد أن أوذيك ،
فسوف أختار الطريق الذى اخترته بنفسك .
وستكشف النهاية عن المخطىء منا والمصيب !
أنت تصر على الرحيل ! فاسمع رأيى الآن :
لن تدير ظهرك لهذا البيت ، حتى يحن قلبك للرجوع ،
ويدفعك عنادك على طريق الهروب ،
العذاب والاضطراب والاكتئاب
تنتظرك فى روما ،
وستخطىء الهدف هنا وهناك .
على أننى لا أقول لك هذا لأنصحلك ؛
وإنما أتنبأ بما سيقع عن قريب
وأدعوك مقدما ، من هذه الساعة
أن تثق بى فى أسوأ الأحوال .
وسأذهب الآن إلى الأمير
لأتكلم معه كما تريد .

المشهد الخامس

تاسو : (وحده) نعم ! إذهب الآن وأنت على يقين
من أنك أقنعتنى بما تريد .
سأتعلم أن أضع قناعا على وجهى ،
فأنت المعلم الكبير ، وأنا التلميذ الذى يفهم
بغير عناء .
هكذا تضطرنا الحياة أن نتظاهر
لا بل أن نكون كأولئك الذين
كان فى مقدورنا أن نحتقرهم بجسارة
وكبرياء .
الآن تتضح لى كل ألاعيب البلاط !
أنطونيو يريد أن يطردنى ولا يريد
أن يظهر كأنه هو الذى يطردنى .
إنه يمثل دور المتسامح الحكيم
حتى يبين للناس أننى مأفون ومريض .
ويفرض وصايته على ، كى يجعلنى طفلا
بعد أن أعجزه أن يجعل منى عبدا .

وهكذا ينشر الضباب حول جبهة الأمير
ويعكر نظرة الأميرة إلى .
لابد من التمسك بى ، هذا ما يفكر فيه
فقد أهدتنى الطبيعة موهبة جميلة ،
لكنها ، ويا للأسف ، قد قرنت الهدية
بألوان من الضعف التى أساءت إلى :
بالغرور الجامح ، والحساسية المفرطة
والشعور المتجهم العنيد .
لا حيلة لنا ، فهكذا صور القدر هذا
الرجل الفريد ،
وعلينا الآن أن نقبله على علاته ،
ونصبر عليه ، ونحتمله ، وليس ببعيد ،
أن يأتى اليوم الجميل الذى نستمتع فيه
بالبهجة التى لم نكن ننتظرها منه .
وبعد هذا فلنترك له أن يعيش
أو فلندعه كما ولد يموت !
أهذا هو ألفونس وعزمه المكين ،
الذى يرغم الأعداء بالشجاعة ويحمى
الأصدقاء بالوفاء ؟
أأستطيع الآن أن أتعرف عليه ،

وهو يعاملني هذه المعاملة ؟
أجل ! إنني أعرف الآن شقائي كله !
هذا هو قدري الذي يجعل كل إنسان
يتغير نحوى في نفس واحد ولحظة واحدة .
بينما يظل مع غيرى الصديق الوفى الأمين.
ألم يكن ظهور هذا الرجل كافيا
ليحطم مصيرى كله فى لحظة واحدة ؟
أليس هو الذى هدم سعادتى
من أساسها ولم يترك حجراً على حجر ؟
هل كان حتما أن أقاسى هذه التجربة
هل كان حتما أن أقاسيها اليوم ؟
نعم . كان الجميع يتدافعون على
والآن يتخلى عنى الجميع ،
وكل من كان يحاول أن يشدنى إليه
وكل من كان يريد أن يستأثر بى
يصدنى الآن عنه ويتجنب طريقى .
وما السبب فى هذا ؟ أترجح كفته فى الميزان
كل ما كنت أحظى به من حب وتقدير ؟
نعم ! كل شيء يهرب الآن منى .
حتى أنت ! حتى أنت ! يا أميرتى المحبوبة

تتخلين الآن عني !
إنها لم ترسل إلي في هذه الساعات الكالحة
بعلامة واحدة تنبىء عن رضاها .
أكنت أستحق هذا منها ؟ يا قلبي المسكين !
يا من فطرت على عبادتها !
كنت لا أكاد أسمع صوتها حتى ينفذ
إلى قلبي شعور لا سبيل للتعبير عنه !
ولا أكاد ألمحها حتى يظلم في عيني
ضوء النهار الوضاح ؛
تسحرني عيناها وشفتاها ،
قدماي لا تعودان تحملاني ،
وأهيب بكل ما فيّ من قوة الروح
كي أتماسك أمامها ولا أسقط عند قدميها ؛
وما من شيء ينقذني من هذا الدوار.
تثبت يا قلبي ! وأنت يا عقلي المنير
لا تدع الضباب يلفك ويغشاك !
نعم ! هي أيضاً ! أأقولها بلساني ؟ولا أكاد
أصدق !
بل إنني أصدق ، وأريد لو أخدع نفسي
بالكتمان .

حتى هى ! حتى هى ! أعذرها من كل قلبك
ولكن لا تخف الحقيقة عن نفسك :
حتى هى ! حتى هى !
آه من هذه الكلمة ، التى كنت أريد
أن أرتاب فيها
طالما تردد فى صدرى نفس من الإيمان ،
أجل ، هذه الكلمة ، إنها خاتم القدر
الذى يحفر رسمه على إطار من حديد
فى لوحتى التى امتلأت سطورها بالعذاب.
الآن سلبت إلى الأبد من كل قوة .
وكيف أحارب ، وهى تقف فى جيش
أعدائى ؟
وكيف أصبر ، وهى لا تمد يدها إلىّ من
بعيد ؟
ونظرتها لا تستجيب لدعائى ؟
لقد تشجعت على التفكير ، واستطعت أن
ترفع صوتك ،
وها هو الأمر حق ، وبأسرع مما كنت
تخشى !
يكفيك قبل أن يقبض اليأس على عقلك

ويمزقه بمخالب من حديد ،
أن تشكو القدر المرير
وتكرر لنفسك : حتى هى ! حتى هى !

الفصل الخامس

بستان

المشهد الأول

(ألفونس – أنطونيو)

أنطونيو : ذهبت ، كما أشرت ، للمرة الثانية
أبحث عن تاسو ، وها أنا قادم من عنده :
بذلت جهدى لأقنعه ، لا بل ألححت عليه ،
غير أنه لا يريد أن يحيد عن رأيه
ويتوسل إليك أن تأذن له
بالسفر إلى روما لفترة قصيرة

ألفونس : لا أريد أن أخفى عنك سخطى ،
وأفضل عندى أن أصارحك به ،
على أن أكتمه وأزيد حدته .
أيريد أن يسافر ؟! حسنا . لن أمنعه ،
أيريد أن يتركنا ويذهب إلى روما ؟ ليكن له ما يشاء !
على ألا يأخذه سكيبيو جونزاجا

أو ينتزعه المديشى البارع منى !(١)
إن ما جعل إيطاليا بهذه العظمة
هو أن كل أمير ينافس جاره
فى الاستئثار بالموهوبين والانتفاع بهم :
والأمير الذى لايجمع المواهب حوله
هو عندى كالقائد بلاجيش ؛
ومن لا يهزه صوت الشعر
فهو متوحش ، مهما علا شأنه .
لقد اكتشفت شاعرى واخترته بنفسى
وأنا أعتز به واحداً من رعاياى
فهل أتركه إلا مرغما
بعد أن فعلت له كل مافعلت ؟
أنطونيو : إننى فى حرج ، لأننى أحمل
أمامك ذنب ما حدث اليوم ؛
أنا أيضاً أريد أن أعترف بخطئى
الذى لا يغتفره إلا عفوك :
غير أننى سأظل بلا عزاء
إذا تصورت أننى لم أفعل

(١) المقصود هو الكاردينال فرناندودى مديشى شقيق أمير توسكانا الأعظم .

كل ما استطعت لأصالحه .
آه لا تحرمنى من نظرتك الحنون
حتى أتماسك وأستعيد الثقة فى نفسي .

ألفونس : لا يا أنطونيو ، فلتهدأ نفسك
فأنا لا ألقى عليك أى ذنب ؛
أنا أعرف تفكير هذا الرجل خير المعرفة
وأعلم تمام العلم مافعلت من أجله ،
وكيف ترفقت به وتسامحت معه ،
ونسيت ماكان من حقى أن أطلبه منه .
قد يستطيع الإنسان أن يسود الكثير
لكنه يحتاج للزمن كما يحتاج للمحن والخطوب ،
لكى يتمكن من السيادة على نفسه .

أنطونيو : أليس من الإنصاف أن يسأل الإنسان نفسه
حين يرى مايفعله الآخرون من أجله
ماذا أستطيع أن أقدمه لمنفعتهم ؟
ومن ثقف عقله إلى هذا الحد ،
وجمع العلوم من أطرافها ،
وحصل مافى طاقة الإنسان تحصيله
ألا يكون ملزماً أكثر من غيره
بالتحكم فى نفسه ؟

أليس عليه أن يفكر فى هذا ؟

ألفونس : كتب علينا ألا نذوق طعم الراحة !
فلا نكاد نفكر فى التمتع بها
حتى نصادف عدوا نختبر معه شجاعتنا
أو نرزق صديقا نجرب معه صبرنا .

أنطونيو : هل تراه يحقق الواجب الأول على الإنسان
الذى يفرض عليه أن يختار طعامه وشرابه
مادامت الطبيعة لم تقيده كما قيدت الحيوان ؟
ألا يضعف كما يضعف الأطفال
أمام كل ما يثير لعابه ؟
ومتى رآه أحد يمزج خمره بقليل من الماء ؟
إنه ينتقل من التوابل إلى الحلوى إلى المشروبات القوية
ليبتلعها فى نهم واحدة بعد الأخرى
ثم يشكو بعد ذلك من كآبة روحه ،
واضطرام دمه وحدة طبعه
ويلقى اللوم على الطبيعة والقدر .
كم من مرة رأيته يجادل طبيبه
ويلقى الكلام فى مرارة وحمق ،
وكم أوشكت على الضحك ، لوكان يضحك
ما يعذب الإنسان ويضايق غيره .

إنه يقول فى قلق : أشعر بهذا الألم »
ثم فى ضيق : « فيم تفاخر بفنك ؟ — أوجد لى العلاج » !
ويرد الطبيب : « حسن ! فامتنع عن هذا وذاك »
— « لا أستطيع »
— « إذن فاشرب هذا الدواء »
— « لا . إن طعمه البشع يملؤنى بالاشمئزاز
— « إذن فاشرب ماء
— أشرب ماء ؟ مستحيل ! إننى أخاف الماء كما يخافه
من عضه كلب .
— إذن فلا أستطيع أن أفعل لك شيئا .
— وما السبب ؟
— لأن الداء سيجر غيره معه ، وإذا لم يقتلك
فسوف يزيد عذابك كل يوم .
— شىء جميل ! وما الفائدة إذن من أن تكون طبيبا ؟
إنك تعرف دائى ، ومن واجبك أيضاً أن تعرف الدواء
وتحبب طعمه إلى ، حتى لا أضطر إلى العذاب
لكى أتخلص من العذاب » .
أراك تبتسم ، أليس هذا هو الذى يحدث ؟
ألم تسمعه بنفسك من فمه ؟
ألفونس : كثيراً ما سمعته وغفرته له .

أنطونيو : حقا إن حياة بعيدة عن الاعتدال
تملؤ نومنا بالكوابيس الثقال
وتسوقنا إلى الحلم فى وضح النهار .
حيثما ذهب ، ظن نفسه محاطاً بالأعداء .
وظن أن كل من يعترف بموهبته يحسده ،
وكل من يحسده يحقد عليه ويضطهده .
كم من مرة ضايقك بشكواه :
بالأقفال التى كسرت ، والرسائل التى فتحت
والسم والخنجر ! وكل مايطوف بخياله !
ولقد أمرت بالبحث ، وبحثت بنفسك
فهل وجدت شيئا ؟ لا أثر !
لا رعاية أمير تشعره بالأمان
ولا قلب صديق يرويه بالحنان .
ألمثل هذا تريد الراحة والهناء ؟
أترجو لنفسك منه السعادة والصفاء ؟

ألفونس : لو كنت أريد منه منفعة قريبة
لكان لك الحق فيما تقول يا أنطونيو !
أليس فى صالحى أننى لا أنتظر
منفعة عاجلة مباشرة ؟
إن كل شىء يخدمنا على طريقته ؛

ومن أراد أن يستخدم الكثير
فليستخدم كل شيء بما يتفق وطبيعته
وبهذا تتحقق له المنفعة .
هذا هو الدرس الذى علمنا إياه آل مديشى
وهذا ما برهن عليه البابوات بأنفسهم .
كم من عبقرى رعاه هؤلاء الرجال
بالسماح والصبر وطول الأناة
وكان يظن أنه فى غنى عن نعمتهم
ومع ذلك لم يستطع أن يحيا بدونها !

أنطونيو : ومن يجهل هذا يا أميرى ؟ إن التعب فى الحياة
هو وحده الذى يعلمنا تقدير عطاياها .
لقد نعم بالكثير حين كان لا يزال صغيراً
فلم يقنع بالمتع القليلة .
ليته يعرف أولا كيف ينعم
بما تغدقه الأيدى السخية عليه :
إذن لاستطاع أن يحزم قواه
ويشعر بالرضا خطوة فخطوة .
إن الرجل النبيل الذى لا يملك ثروة
يستطيع أن يبلغ أسمى أمانيه
إذا جعله أمير عظيم من رفاقه

وحرره بيده الرقيقة من الضيق .
فإذا حباه كذلك ثقته ورضاه
واصطفاه بجواره على كل من عداه
فى الحرب والحكم والحديث
فقد يبدو لى أن الرجل المتواضع
يستطيع أن يشكر حظه فى صمت .
وتاسو يزيد على هذا كله
أروع ما يمكن أن يحظى به شاب :
فالوطن يكرمه ويعقد عليه الآمال .
صدقنى إن قلت إن مزاجه الغريب
يتقلب على مخدة حظه السعيد .
ها هو قادم . فسرّحه فى كرم
ليلتمس فى روما أونابولى أو حيث شاء
ما يفتقده هنا ، وما لن يجده فى غير هذا المكان .

ألفونس : أيريد أن يسافر أولا إلى «فرارا» ؟

أنطونيو : بل يرغب أن يبقى فى «بلرجواردو» ،
ويكلف أحد أصدقائه أن يرسل إليه
أهم ما يحتاجه فى رحلته .

ألفونس : بكل سرور . ستبادر شقيقتى بالعودة إلى المدينة
مع صديقتها ، وسأسبقهما على جوادى .

وستلحق بنا بعد أن ترعى شئونه .
مر الحاجب أن يقوم بما يلزم
ليبقى فى القصر إلى ما يشاء
حتى يرسل أصدقاؤه إليه المتاع
وتصله الرسائل التى أحب أن أعطيها له
ليأخذها معه إلى روما . ها هو قادم
الوداع !

المشهد الثانى

(ألفونس ــ تاسو)

تاسو : (فى تحفظ) عطفك الذى طالما غمرتنى به
يتجلى لى اليوم فى أبهى ضياء .
الإثم الذى ارتكبت فى جوارك
عن طيش غفرته لى .
خصمى جعلته يمد يديه إلى
وتريد الآن أن تأذن لى
بالبعد قليلا عن جوارك ،
ويشاء مع ذلك قلبك الكريم
أن لا يحرمنى من رضاه .
سأرحل عنك وملئى الثقة
وأبعد عنك وكلى رجاء
بأن غيابى هذا القصير
سيشفى هموم الفؤاد الكسير .
أريد أن تسمو روحى من جديد

وأسعى على الدرب الذى شجعتنى نظرتك الحنون
على السير عليه فى سعادة وجرأة
لكى أعود جديراً بعطفك .

ألفونس : أتمنى لك الحظ السعيد فى رحلتك
وأرجو أن نراك بيننا من جديد
مبتهج النفس فى أطيب حال .
عندئذ ترد إلينا المكسب مضاعفا
عن كل لحظة حرمتنا منها .
سأعطيك رسائل لرجالى وأصدقائى فى روما
وأرجو أن تعدهم جميعا أصدقاء أوفياء
أما أنا فسوف أظل أنظر إليك
على البعد كصديق حميم .

تاسو : أنت تغمر بفضلك يا أمير
إنسانا يشعر أنه لا يستحقه
ولا يكاد فى هذه اللحظة يستطيع
أن يعبر لك عن شكره .
وبدلا من أن أقدم لك امتنانى
جئت أرفع إليك التماسا !
أنت تعلم كم أعتز بقصيدى ،
لقد بذلت فيه الكثير ولم أبخل عليه

بجهد ولا عناء ، ومع ذلك فلم يزل
أبعد بكثير عما أتمناه .
أريد أن أعود تلميذاً من جديد
هناك حيث لا تزال أرواح العباقرة
تطوف فى السماء وتؤثر على القلوب ،
فربما تصبح أنشودتى جديرة باستحسانك .
أتوسل إليك أن تعيد إلى الأوراق
التى يخجلنى أن أعرف أنها بين يديك .

ألفونس : أتريد اليوم أن تسترد الهدية
التى أعطيتنى فى هذا اليوم نفسه ؟
دعنى أتوسط بينك وبين قصيدك .
حاذر أن تفرط فى الجهد والعمل
فتؤذى الطبيعة الرقيقة التى تنبض فى أبياتك ،
ولا تنصت إلى النصائح التى تنهال عليك من كل ناحية !
إن آلاف الأفكار التى تصدر عن أناس مختلفين
يناقضون بعضهم فى الرأى والحياة
يضمها الشاعر الذكى فى كل واحد
فلا يهاب أن يغضب القليلين
مادام سيفوز بالمزيد من رضا الآخرين .

ومع ذلك فلست أريد بهذا أن أقول
إنك لا تحتاج أن تمر عليها فى هدوء
فتهذب فيها هنا وهناك ،
ولذلك أعدك الآن أن أعطيك
نسخة منها بعد وقت قصير .
أما المخطوطة فسأحتفظ بها
لأستمتع بها مع شقيقاتى .
فإذا رجعت إلينا بنسخة أكمل
فسوف تزيد متعتنا بها
وقد نلفتك إلى بعض الملاحظات
التى نبديها لك كأصدقاء .

تاسو : أتوسل إليك من جديد فى خشوع :
دعنى أحصل على هذه النسخة على وجه السرعة !
إن كيانى كله يعيش الآن فى هذا القصيد
وإذا قدر له أن يكون شيئا ، فليكن الآن !

ألفونس : إنى أحيى هذه الرغبة التى تملك عليك نفسك !
ومع ذلك فمن واجبك ياعزيزى تاسو
أن تفرج عن نفسك بقدر ما تستطيع
وتستمتع بالعالم الواسع قليلا
وتأخذ علاجا ينقى دمك .

هناك يستعيد وجدانك الانسجام الجميل
ويعطيك مالن تناله بالانفعال الكئيب .

تاسو : قد يبدو الأمر كذلك يا أميرى
ولكننى بمجرد أن أنكب على عملى
أحس بأننى صحيح معافى
وأستمد من العمل قوة جديدة .
إنك تعرفنى منذ وقت طويل
وتعرف أننى أضيق بحياة الفراغ ؛
إن الراحة هى آخر مايريحنى .
وهذا الوجدان ، ويا للأسف ، لم تهيئه الطبيعة
ليطفو مرحا على نهر الأيام
ويسبح فى بحر الزمان الواسع .

ألفونس : كل ما تفكر فيه أوتفعله
يغوص بك إلى أعماق نفسك !
كم من هاوية حفرها القدر حولنا
لكن أعمقها هنا فى قلبنا
وهى تجذبنا إلى التردى فيها .
أتوسل إليك أن تنتزع نفسك من نفسك !
وسترى أن ما ستفقده كشاعر ستكسبه كإنسان .

تاسو : عبثاً أحاول التحكم فى هذا الدافع

الذى يموج فى صدرى ليل نهار .
إننى إن توقفت عن الفكر والإبداع
لم تعد الحياة فى عينى حياة .
أتستطيع أن تمنع دودة الحرير
من أن تغزل النسيج الذى يؤدى لموتها ؟
من قلبها تنتزع الخيط النفيس
فلا تتوقف حتى تغلق الكفن على نفسها .
ليت إلها محسناً ينعم علينا
بنصيب هذه الدودة الذى تحسد عليه !
ليتنا نستطيع ذات يوم
أن نفرد الجناحين المشعين
فى وادى الشمس البعيد
فى بهجة وبغير ميعاد .

ألفونس : إستمع إلى ! إننى أرجوك
– وأنت الذى تضاعف للكثيرين بهجة الحياة –
أن تتعلم أنت نفسك قيمة هذه الحياة
التى أغدقت عليك عطاياها بسخاء .
وداعاً ! وكلما أسرعت بالرجوع
زدتنا فرحة بعودتك .

المشهد الثالث

تاسو : (وحده) تماسك يا قلبي ، فأنت على الدرب الصحيح !

المهمة عسيرة ، إنها المرة الأولى

التى تجرب فيها أن تتنكر ولا تخيب .

ها أنت قد سمعت : لم يكن هذا قلبه

ولا الكلمات كما عهدتها كلماته .

لكأنى ما سمعت إلا صوت أنطونيو .

آه كن على حذر ! فسوف تسمعه الآن

يأتيك من كل ناحية . تماسك . تماسك !

لم تبق غير لحظة وتدرك الهدف .

من تعلم التنكر فى أواخر الحياة

أنقذته سمعته الطيبة من العيون

فتعلم كيف تحذق فنونهم ، وسيتم كل شيء على ما يرام .

(بعد فترة صمت)

أنت تتباهى بالانتصار قبل الأوان ! ها هى قادمة
هناك !
الأميرة الرقيقة قادمة ! يا له من شعور !
إنها تدخل . والشك والسخط اللذان تجمعا فى قلبى .
يذوبان الآن فى دموع الأحزان .

المشهد الرابع

(الأميرة ــ تاسو ــ ثم يدخل الباقون قبل نهاية المشهد)

الأميرة : هل تفكر إذن فى أن تتركنا
أم تريد أن تبقى قليلا فى بلرجواردو
حتى يأتى اليوم الذى ترحل عنا فيه
لفترة قصيرة كما أتعشم يا تاسو ؟
أتذهب إلى روما ؟

تاسو : سأذهب أولا إلى هناك ،
فإذا أحسن الأصدقاء استقبالى كما أرجو ،
فقد أستطيع أن أحشد صبرى وعنايتى
لأضع اللمسة الأخيرة فى قصيدتى .
سأجد هناك رجالا كثيرين
يحق لهم أن يصفوا أنفسهم
بأنهم سادة فى كل الفنون .
ألا ينطق كل مكان فى تلك المدينة العظيمة

ألا يتحدث كل حجر إلى قلوبنا ؟
وكم من ألف معلم صامت يشير إلينا
إشارة الصديق فى هيبة وجلال !
وإذا لم أستطع أن أكمل قصيدتى هناك
فأين إذن أستطيع أن أكملها ؟
بيد أنى ، ويا للأسف ، أحس من الآن
أننى لن أنجح فيما سأقدم عليه .
لا شك أننى سأغير فيها ، لكننى لن أستطيع إتمامها
إننى أشعر الآن ، أشعر بكل وضوح
أن الفن العظيم الذى يغذو الجميع
وينعش العقل السليم ويقويه
سوف يدمرنى ويطردنى بعيداً عنه .
أريد أن أهرب ! أريد أن أذهب الساعة إلى نابولى !

الأميرة : وهل يمكنك أن تخاطر بهذا ؟ إن حكم النفى
الذى نزل بك وبأبيك لم يرفع بعد .

تاسو : أنت على حق فى تحذيرك ، ولكننى فكرت فى المسألة .
سأذهب إلى هناك متنكراً
مرتدياً ثوب الحجاج أو الرعاة المساكين .
سأدخل المدينة خفية ،
حيث يضيع الفرد فى زحام الألوف .

سأسرع إلى الشاطىء حيث أجد هناك
قارباً يركبه أناس طيبون من مدينة سورنت
وفلاحون عائدون إلى بيوتهم من السوق .
ذلك لأننى لا بد أن أسرع إلى سورنت
فهناك تعيش شقيقتى التى كنت وإياها
بالنسبة لأبوينا كل العذاب والسرور .
سألزم الهدوء فى القارب ، وأدلف إلى الشاطىء فى صمت
وأصعد فى حذر على الطريق المؤدى إلى بوابة المدينة
وهناك أسأل : أين تعيش كورنيليا ؟ دلونى على مسكنها
كورنيليا سيرسالى ؟
وسأجد غازلة تبتسم لى وتدلنى على البيت والطريق .
وأواصل الصعود . وحولى الأطفال ينظرون مدهوشين
إلى الشعر المضطرب والوجه الغريب الحزين .
وأبلغ العتبة ، فأجد الباب مفتوحاً ، وأدخل .

الأميرة : إفتح عينيك يا تاسو إذا استطعت ،
وانظر إلى الخطر الذى تريد أن تهوى فيه .
لولا إشفاقى عليك لسألتك :
أمن النبل أن تقول هذا الكلام ؟
أمن النبل ألا تفكر إلا فى نفسك ،
وكأنك لا تعذب قلوب الأصدقاء ؟

هل يخفى عليك رأى شقيقى فيك ؟
هل تجهل كيف تقدرك شقيقتاى ؟
ألم تحس بهذا التقدير وتتأكد منه ؟
هل يتغير كل شىء فى لحظات قليلة ؟
تاسو ! إن كنت تريد أن تفارقنا
فلا تترك لنا الألم والعذاب .

تاسو : (يشيح بوجهه بعيداً) .

الأميرة : كم يعزى النفس حين يرحل صديق
فى رحلة قصيرة ، أن نقدم له هدية صغيرة
ولتكن معطفاً جديداً أو سلاحاً !
أما أنت فلا يستطيع الإنسان أن يهديك شيئاً
لأنك تطرح عنك كل ما تملكه فى نفور .
إنك تختار عباءة الحجاج وبردتهم السوداء
وعكازهم الطويل ، وتتعمد أن تذهب إلى هناك
فى زى المساكين وتسلب منا
ما لم تكن لتتمتع به إلا معنا .

تاسو : إذن فأنت لا تنبذيننى تماماً ؟
يا للكلمة العذبة ، يا للعزاء الغالى الجميل !
دافعى عنى ! خذينى فى حماك !
دعينى هنا فى بلرجواردو ، أو انقلينى إلى كونساندولى

أو إلى حيث تشائين !
ألا يملك الأمير من القصور الجميلة والبساتين
ما يحتاج إلى العناية طوال العام
ولا تكادون تقيمون فيه يوماً واحداً أو ساعة واحدة ؟
إختارى أبعدها جميعاً ، ذلك الذى لم تزوريه منذ سنوات
وقد يكون الآن مهجوراً ، وأرسليني إلى هناك !
دعيني هناك أهب حياتى كلها لكم !
كم أتمنى أن أتعهد أشجارك !
وأغطى فى الخريف أشجار الليمون بالألواح والقرميد
وألفها بعناية بأعواد القصب !
ستمد الأزهار الجميلة جذورها العريضة فى الأحواض
وسيبدو كل ممشى وكل خلوة فى أبهى زينته .
واتركى لى كذلك العناية بالقصر !
سأفتح النوافذ فى الوقت المناسب
فلا تفسد الرطوبة اللوحات ؛
والجدران المزدانة بمعجون المرمر
سأنظفها بالريش الخفيف
وستلمع الأرضية الخشبية وتتألق
ولا يتزحزح حجر أو طوبة عن مكانهما
ولا ينبت عشب فى أحد الشقوق !

الأميرة : لست أجد فى عقلى رأياً
ولا فى قلبى عزاء لك أو لنا .
إن عينى تتلفت حولى ، لعل إلهاً
أن يمد إلينا يد المساعدة ،
أو يدلنا على بلسم أو نبات شاف
ينزل السلام على نفسك ويهدىء نفوسنا .
إن أخلص الكلمات التى تخرج من الشفاه
وهى الدواء الساحر لم يعد لها تأثير .
لا بد أن أتركك تسافر ،
ولكن قلبى لا يستطيع أن يهجرك .

تاسو : أيتها الآلهة ! إنها هى
التى تتكلم معك وتعطف على بؤسك !
ومع ذلك أسأت فى فهم القلب النبيل ؟
كيف استولى الضعف عليك
وكيف قهرك اليأس وأنت منها قريب . ؟
لا لا ! إنها هى ! وأنت أيضاً قد ولدت من جديد .
تكلمى تكلمى ودعينى أستمد
من بين شفتيك الأمل والعزاء !
لا تحرمينى من نصيحتك ! قولى : ماذا أفعل ؟
لكى ينعم شقيقك بالعفو على

ولكى أكون جديراً بعفوك
ولكى يسعدكم من جديد
أن تعدونى واحداً منكم
قولى لى !

الأميرة : إن ما نطلبه منك قليل
ومع ذلك يبدو أكثر من الكثير .
يكفيك أن تترك نفسك لنا ، وتطمئن لمودتنا .
نحن لا نريد منك إلا ما فى طاقتك
إذا استطعت فحسب أن ترضى عن نفسك .
أنت تسعدنا ، حين تكون سعيداً
وتؤلم قلوبنا حين تهرب من السعادة .
وإذا كنت تجعلنا نفقد الصبر أحياناً
فلأننا نتمنى أن نساعدك ، ونرى ، ويا للأسف ،
أن كل مساعدة لا جدوى منها
ما دمت لا تريد أن تمسك بيد الصديق
التى تمتد إليك فى شوق ولا تصل إليك .

تاسو : ما زلت أنت التى رأيتها أول مرة
حين أقبلت على كالملاك الطاهر !
إغفرى للبشر الفانى نظرته
التى غشيت لحظات فلم تعرفك

إنها تراك الآن ! وروحى كلها تتفتح
لتعبدك أنت وحدك إلى الأبد ،
والقلب يفيض كله بالحنان
إنها هى . أراها أمامى . يا له من شعور !
أهى الحيرة التى تدفعنى إليك ؟
أهو الجنون ؟ أم حس عال
ينتشى بالحقيقة السامية الصافية ؟
نعم ! إنها العاطفة التى تستطيع وحدها
أن تهبنى السعادة على هذه الأرض .
وهى وحدها التى قدرت شقائى
حين قاومتها وأردت أن أنفيها من القلب .
هذه العاطفة هى التى حاولت أن أحاربها
وصارعت وصارعت صميم كيانى
وهدمت فى غضبى الأحمق ذاتى
التى عرفت أنك لها وحدها .

الأميرة : تاسو ! إن كنت حريصاً على أن أسمعك
فكفكف هذا اللهب الذى يفزعنى .

تاسو : هل تمنع حافة الكأس النبيذ
من أن يطفح ويزيد ويفور ؟
كل كلمة منك تزيد سعادتى
ومع كل كلمة تتألق عيناك .

أحس أنى تغيرت فى أعماقى
وأنى تخلصت من كل همومى وأعبائى
وأصبحت حراً كإله ، وكل هذا بفضلك !
القوة الغامضة التى تتحكم فى حياتى
تتدفق من شفتيك . نعم ! أنت تملكين وجودى .
لم يعد لى شىء أملكه من نفسى .
عينى تعشى فى وميض السعادة والنور ،
وجدانى يترنح ويضطرب . ساقى ترتعش .
أنت تشدينى نحوك فلا أملك أن أقاوم
أو أمنع قلبى الذى يندفع إليك .
ملكتنى إلى الأبد بين يديك
فخذى وجودى كله إليك !
(يلقى نفسه بين ذراعيها ويضمها بشدة إلى صدره)

الأميرة : (تدفعه عنها وتبتعد بسرعة) : إبتعد !

ليونورا : (التى ظهرت منذ قليل فى مؤخرة المسرح تسرع مقبلة) :
ماذا حدث ؟ تاسو ! تاسو !
(تتبع الأميرة)

تاسو : (الذى يريد أن يتبعهما) : آه يا إلهى !

ألفونس : (الذى اقترب منذ قليل مع أنطونيو) :
لقد جن جنونه ! أوقفوه ! (يخرج)

المشهد الخامس

(تاسو ــ أنطونيو)

أنطونيو : أنت يا من تعتقد دائماً أن الأعداء يحيطون بك
كم يحس العدو بالانتصار لو رآك الآن !
أيها الشقى ! إننى لا أكاد أفيق من ذهولى !
عندما نفاجأ بشىء لم نكن نتوقعه ،
عندما تقع أنظارنا على شىء رهيب
يتوقف العقل لحظة كالمشلول :
ولا نجد وصفاً لهذا الشىء المجهول .

تاسو : (بعد فترة صمت طويلة) :
أتمم مهمتك ـــ إنى أراك الآن على حقيقتك !
نعم ! إنك تستحق ثقة الأمير فيك
أتمم وظيفتك ! إستمر فى تعذيبى !
انكسرت عصاى فعذبنى فى بطء حتى أموت !
إغرز ! إغرز السهم حتى أحس بالكُلاَّب
يغوص فى لحمى ويمزقنى !
أنت أداة طيعة فى يد الطاغية ؛

كن السجان و كن الجلاد
فكلاهما يليق بك !
(يدير وجهه ناحية المشهد)
نعم ! إستمر أيها الطاغية !
لم تستطع أن تلبس القناع للنهاية ، إنتصر !
عرفت كيف تقيد العبد بالأغلال
و كيف تدخره لعذاب أفظع :
إستمر فى عملك ، فإننى أكرهك
وأحس بالبشاعة التى تثيرها فى نفسى
القوة المستبدة التى تفتك بالأبرياء
(بعد فترة صمت)
وهكذا أرانى فى نهاية المطاف
طريداً منفياً كأننى شحاذ !
لم يتوجوا رأسى إلا ليزينوا
الضحية التى يقدمونها إلى المذبح !
هكذا جردونى فى يومى الأخير
بألفاظهم المعسولة من كنزى الوحيد ،
من قصيدى الذى لن يردوه إلىّ !
من ملكى الوحيد الذى كان ممكنا
أن يضمن لى الحفاوة فى كل مكان

أزوره ويحميني من الجوع !
الآن أرى لماذا أردتم لى أن أستريح .
إنها مؤامرة ، وأنت رأس المتآمرين :
لكى تبقى قصيدتى إلى الأبد ناقصة
لتحرموا اسمى من المجد والشهرة
ليجد حسادى ألف عيب يأخذونه على
ولأسقط أخيراً فى هوة النسيان .
ألهذا أردتم لى الراحة والفراغ ؟
ألهذا دعوتمونى لأحفظ نفسى وأدخر قواى ؟
يا للمحبة الصادقة ! يا للعناية الرءوم !
كنت أتخيل بشاعة المؤامرة
التى تحاك لى بلا هوادة فى الظلام
وها هو الواقع أبشع من كل خيال !

* * *

وأنت أيتها الساحرة الخئون !
يا من جذبتنى برقة السماء
هانذا أراك الآن على حقيقتك !
يا إلهى ! لماذا لم تُفتح عيناى قبل الآن !

* * *

بيد أننا نحب أن نخدع أنفسنا بأنفسنا
ونكرم كل نذل دنىء يكرمنا .
إن الناس يجهلون بعضهم البعض ؛
أما عبيد الحرب الذين يجلسون لاهثين مغلولين على
مقعد واحد ،
فأولئك هم الذين يعرفون بعضهم البعض ؛
وحيث لا يطلب أحد من صاحبه شيئاً
ولا يخشى أن يفقد شيئاً ،
وحيث يكشف كل واحد عن خبثه
ولا ينتظر من جاره إلا الخبث
فأولئك يعرف بعضهم البعض .
لكننا لا نجامل غيرنا حين نخدع أنفسنا فيهم
إلا لكى يكون من حقنا أن نطلب منهم نفس المجاملة .

* * *

صنمك الذى عبدته كل هذا الزمن
كان يحجب عنى المرأة اللعوب .
سقط القناع ، وأرى الآن أرميد
عارية من كل سحرها — نعم ! أنت هى !
وكم تغنت قصيدتى بهذه الأحاسيس !

* * *

والوسيطة الصغيرة الماكرة

كم سقطت الآن من عيني !
ما زلت أسمع حفيف خطواتها الناعمة حولي
وأعرف الآن الهدف من دسها و كيدها .
إنني أعرفكم الآن جميعاً ! ويكفيني هذا !
وإذا سلبني حظي الشقي من كل شيء
فسأعرف فضله علي إذ كشف لي الحقيقة .

أنطونيو : إنني أسمعك يا تاسو في ذهول
بالرغم من علمي أن عقلك المندفع
يتذبذب في سهولة من طرف إلى طرف .
عد إلى نفسك ! تحكم في هذا الغضب !
إنك تجدف من كلمة إلى كلمة
وتأتي ذنوباً إن غفرتها لك آلامك
فلن تغفرها لنفسك أبداً .

تاسو : آه لا تخاطبني بكل هذه الرقة ولا تحاول
أن تعيد إلى الهدوء بكلماتك العاقلة !
دعني أتمتع بلذة الجنون الكئيبة
لكي لا أعود إلى عقلي لحظة فأفقده .
أحس في أعماقي أن هيكلي تهشم
ولست أعيش إلا لأجل هذا الإحساس .
اليأس يقبض علي بكل قسوته ،

وفى جحيم العذاب الذى يفنينى
لا يكون التجديف إلا شكوى ضعيفة .
أريد أن أرحل ! فإن كنت صادقاً
فأثبت لى هذا ، ودعنى أفر فى هذه اللحظة !

أنطونيو : لن أتخلى عنك فى هذه الشدة ؛
وإذا كنت قد فقدت التحكم فى نفسك
فإنى لن أفقد الصبر معك .

تاسو : أعلى إذن أن أستسلم لك ؟
ها أنا قد سلمت ، وتم الأمر :
لن أقاوم ، وها أنا قد استرحت —
ودعنى أكرر الآن فى ألم
كم كان جميلا ما أضعته من يدىَّ .
ها هم قد ابتعدوا — يا إلهى !
إنى أرى الغبار الذى يرتفع خلف عرباتهم .
الفرسان فى المقدمة . إنهم يسيرون
على نفس الطريق الذى جئت منه .
إنهم يرحلون غاضبين على
لو أننى استطعت أن أقبل يده !
لو أننى استطعت أن أودعه
وأقول له للمرة الأخيرة : أعف عنى !

وأسمعه يقول : إذهب فقد عفوت عنك !
لكنني لا أسمعها منه ولن أسمعها أبداً .
أريد أن أذهب إليه ! دعونى أودعه
ولا أطلب شيئاً غير هذا الوداع !
أعطونى ! آه أعطونى هذه اللحظة مرة واحدة !
فربما شفيت . لا . إننى طريد . إننى منفى .
أنا الذى نفيت نفسى بنفسى .
لن أسمع هذا الصوت أبداً .
لن ألاقى هذه النظرة أبداً .

أنطونيو : حاول أن تنصت إلى صوت رجل
لا يستطيع أن يسمعك بغير تأثر !
لست شقياً إلى الحد الذى تظن
تمالك نفسك ! جرب أن تقاومها !

تاسو : هل بلغت من البؤس ما يبدو على ؟
هل بلغت من الضعف ما يظهر لك ؟
هل ضاع إذن كل شىء ؟
هل زلزل الألم بنيانى
وحوّله إلى ركام من الأنقاض ؟
ألم تبق لدى موهبة تحمينى وتقدم لى ألف عزاء ؟

هل انطفأت كل القوة التى كانت تجيش فى صدرى ؟
هل أصبحت عدماً ؟ هل فنى وجودى ؟
لا ! إن كل شيء كما هو ، لكننى أصبحت عدماً .
لقد تخليت عن نفسى وتخلت عنى .

أنطونيو : إذا ظننت أنك قد فقدت كل شيء
فقارن نفسك بغيرك ، واعرف من أنت !

تاسو : أجل ! إنك تذكرنى بنفسى فى اللحظة المناسبة ! —
ألم يبق لى مثل أعلى أستمده من التاريخ ؟
ألا يتمثل لى بطل تعذب أكثر مما تعذبت
فأتماسك حين أقارن نفسى به ؟
لا ! لقد ذهب الجميع ! ولم يبق لى سوى شيء
واحد :
الدمعة التى أهدتها لنا الطبيعة ، وصرخة الألم
التى يطلقها الإنسان حين يعجز عن الاحتمال .
وأنا الذى احتفظت بهذه الهدية السامية —
تركت لى فى الألم اللحن والخطاب
لأشكو همومى كلها فى نشيدى :
وإذا ما أخرس الإنسان عذابه
وهبنى الرب أن أعبر عن عذابى
(أنطونيو يتقدم نحوه ويتناول يده) :

تاسو : آه أيها الصديق النبيل ! إنك تقف ثابتاً وهادئا
بينما أبدو كالموجة التى تتقاذفها العاصفة .
ولكن تريث ولا تغتر بقوتك !
فالطبيعة الجبارة التى بنت هذه الصخرة الراسخة
قد أعطت الموجة القدرة على الحركة .
إنها ترسل عواصفها ، فتفر الموجة
وتتأرجح وتنتفخ وتثور مزبدة .
على هذه الموجة كان ينعكس ضياء الشمس الجميل .
وفوق هذا الصدر الذى تحركه نسمة خفيفة
كانت تستريح النجوم :
الآن اختفى الضياء ، وتبددت الراحة .
لم أعد أعرف نفسى فى وسط الأخطار
ولا عدت أشعر بالخجل من هذا الاعتراف .
إنكسر المجداف ، وبدأت السفينة تتحطم من كل ناحية .
والأرض راحت تنشق تحت قدمى !
ها أنا ذا أمسك يديك ، وأضمك بذراعىّ
كما يتشبث الملاح فى النهاية
بالصخرة التى سيتحطم عليها .

تمت

فهـــرست

اقرأ فى هذه السلسلة لهؤلاء العمالقة :

- اسخيلوس
- سوفوكليس
- يوربيديس
- ارسطوفانيس
- شكسبير
- مارلو
- موليير
- راسين
- شريدان
- ابسن
- برنارد شو
- ت.س. اليوت
- تشيكوف
- لويجى برندللو
- يوجين اونيل
- وايلدر
- جان بول سارتر
- برخت
- دورنمات
- جان انوى
- آرثر ميلر
- البير كامى
- تنيسى وليامز
- جون اسبورن
- براندن بيهان
- اوكيسى
- جايلز كوبر

وكثيرين غيرهم

فى العدد القادم المجانين تاليف : دستويفسكى

العدد ٤٠

الثمن ١٥ مـ



دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

بالقاهرة

في هذا العدد : تاسو

توركواتو تاسو (١٥٤٤ - ١٥٩٥) من أكبر الشعراء الايطاليين فى أواخر عصر النهضة . عاش حياة بائسة ، وانتهى نهاية حزينة . استضافه ألفونس الثانى أمير « فرارا » وأصبح شاعر البلاط ، وعاش محاطا بالرعاية والتكريم حتى انتابته الشكوك الدينية والنفسية فأصيب بجنون الاضطهاد أو بجنون الكآبة ، وأمضى بقية حياته شريدا هائما على وجهه . وقد سحرت شخصيته شاعر الألمان الأكبر جوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) فاستمد منها موضوع هذه المسرحية ، التى جعلها تدور حول الصراع بين الموهبة والحياة ، والفن والواقع . فالشاعر تاسو يحيا فى عالم الشعر الذهبى ، ويعكف على أحلامه وأوهامه التى تسوقه شيئا فشيئا الى الهاوية ، بعد أن يعجز عن التلاؤم مع واقع الحياة المحيطة به ، وتخيب آماله فى حبه لشقيقة الأمير .

ولا ترجع أهمية المسرحية الى تصوير هذه الحقائق التاريخية والنفسية ، بقدر ما ترجع الى صدقها فى التعبير عن الصدام الضرورى بين الشعر والواقع ، وعن مأساة الشعراء والفنانين فى كل زمان ومكان .

المؤلف : يوهان فولفجانج جوته ، شاعر الألمان الأكبر .

المترجم : د. عبد الغفار مكاوى .

في العدد القادم :

« المجانين »

اجتاحت الاضطرابات روسيا القيصرية ، وخافت زوجة دستويفسكى أن يقبضوا على شقيقها الطالب بالمعاهد العليا فاستدعاه دستويفسكى ليقيم معهما فى المانيا حتى ينجلى الموقف . ومن هذا الطالب عرف أخبار التمزق الفكرى والسياسى والانحلال الأخلاقى بين الشباب المثقف فى روسيا القيصرية . الشباب الذى لايؤمن بشىء أى شىء من أى نوع . وكان دستويفسكى يفـ
قصة بعنوان « الالحاد » . لكن مشروع القصة تطور فى ذهنه
العمل الفنى الكبير فى ٦٠٠ صفحة بعنوان « المجانين » .

« واختار البير كامى هذه القصة بالذات ليكتبها للمسرح . ش
عن مجموعة من الشبان فى تنظيم فوضوى يؤمنون بالحرية المطلقة
معظمهم ملاحدة . يقوم بعضهم بقتل شاتوف لانسحابه من التنظيم
الارستقراطى الوسيم شافروجين الضابط السابق بالجيش يسقط
الفساد والانحلال وينتهى الى الانتحار مثل زميله كيرلوف . كل هذ
بالسخرية والنقد اللاذع وعمق التحليل النفسى .

تأليف : دستويفسكى

مسرحة : البير كامى

ترجمة وتقديم : اسماعيل المهدوى